حكايات جزائرية

دوّنـهـا

رابح خدّوسي عائشة بنّور

دار الحضـارة

2015

ص ب 04 (A) بئر التوتة – الجزائر 16045

هاتف/فاكس: 46 . 70 . 41 . 21 (00213)

البريد الإلكتروني: kheddoucir@yahoo.com

مقدمة

الحكاية الشعبية، كائن حي.. له أجنحة.. يطير بها عابراً الحدود، بدون جواز سفر.. لذلك نرى فيها ملامح إنسانية عامة، إذ تتشابه، وتتشابك، وتنمو، وتحيا في أرجاء دنيانا: مثيرة، ممتعة، صالحة في كل مكان وزمان.

ويكفيها فخراً أنها من تأليف "الشعب" بكامل فئاته، وهي ثمرة تفكير عقل جَمْعى، لذلك تنتصر دائماً للخير، ويلقى الشر فيها هزيمة مروعة.. كما أنها تصل مباشرة إلى وجدان سامعها، وقارئها، لا تحتاج إلى استئذان ولا تقف في وجهها أبواب مغلقة أوأسوار عالية..

والعالم يعترف لنا - نحن العرب - بأن لدينا أعظم كنوزه الشعبية: ألف ليلة وليلة، ويرى في شهرزاد أهم راوية للحكايات في كل الدنيا، لذلك أخذوا منها ما أعطوه لأبنائهم، وحولوها إلى مسرحيات، وأفلام، استمتعوا بها، وأسعدتهم، ووسعت من خيالهم وأنعشت دائماً ذاكرتهم.. وفعلوا نفس الشيء مع السير الشعبية

العربية مثل عنترة، وعلي الزيبق، وأبي زيد الهلالي والزناتي خليفة وذياب، بجانب سيف بن ذي يزن، والأميرة ذات الهمة. وكان جميلاً من الأستاذ "رابح خدوسي" والأستاذة "عائشة بنت المعمورة" أن يعيدا صياغة الحكاية الشعبية العربية في الجزائر، وأن يعدّاها للأطفال، أسوة بما حدث في كل بلدان العالم، وسوف نجد ملامح من سندريلا في قصة "بقرة اليتامى"، واستبدلت حكايتنا الحذاء بالشعرة الصفراء، كما أن حكايتنا كانت أكثر عمقاً وإنسانية عندما جعلت البقرة أكثر عطاءً من البشر، لأنها أعطت اللبن حتى بعد رحيلها..

والنصف الثاني من القصة يذكرنا أيضاً بحكاية "جاك وأعواد الفول"، وغيرها، حين يتحمل الصغار النفي، ويعتمدون على أنفسهم وعلى القدر، وهم ينجحون في النجاة بأنفسهم، بل وتحقق حياة كريمة.. ونحن قد نجد في الحكاية الشعبية بعض القسوة والعنف لكن أبناءنا أكثر شجاعة من أن يخافوا منها أوينزعجوا أويرتجفوا، وهم يتقمصون شخصيات أبطال هذه الأعمال وهم قادرون على احتمال هذا الذي يجري معهم، وإن كنت شخصياً

أفضّل استبعاد بعض الأحداث، لأننا نريد للأبناءأن يكونوا أكثر شعورا بالأمن والطمأنينة.. لأن في دنيانا مايزيد على الحاجة من الرعب والفزع.

وحكاية "الأميرة السجينة" فيها من "جميلة والوحش" ومعروف أن العقل الإنساني قادر على أن يهزم المارد والوحش والعملاق، إذا ما أسأنا التفكير والتدبير.

ولا يعني هذا التشابه أننا أخذنا منهم وعنهم، لكن الحقيقة أننا أبدعنا بأنفسنا حكاياتنا ، ومن قبلهم، وإنها طارت هنا وهناك، لأنها كائن حي له جناحان.. ولا يعقل أن تعلّم شهرزاد العالم رواية الحكايات التي أنقذت حياتها ، وحياة فتيات كان من الممكن أن يتخلص منهن شهريار، أي أن الحكي قد انتصر على القتل، وهزمه.. لذلك فإن لنا أن نشد على يد الكاتب "رابح" والكاتبة "عائشة" ، شاكرين لهما أن قدما لنا هذه الأعمال التي وصلت إلينا عبر الأجيال، وكابدت الزمن، وبقيّت حية مما يؤكد أصالتها ، وهو أمر جعل الناس يتوارثونها ، ولا يفرّطون فيها.. وهي- أي الحكايات- أروع بكثير من تلك التي تصل إلينا مترجمة ومنقولة،

فهي ملكنا ، وخاصّة بنا ، وتمسّ منا العقل والقلب والوجدان، وتجعل منا أناساً طيبين، وقادرين على مواجهة المصاعب، وعلى حل المشكلات، كما يفعل أبطالها..

نعم، إن البطولات التي أبداها شعب الجزائر من أجل الحرية والاستقلال قد يراها البعض أكبر وأعظم من تلك التي يقوم بها أبطال الحكايات الشعبية، لكن هذه الحكايات ساهمت بدون شك في وجود الأبطال الحقيقيين... ومرحباً بحكايات الجزائر الشعبية لكل القراء العرب في وطنهم الكبير.

الدكتور: عبد التواب يوسف

خبير عالمي في ثقافة الطفل

– مصر–

عــروس الجبــال

عــروس الجبـــال

في قديم الزمان كانـت تعيش في الأوراس فتـاة مَلِكَةُ السِّحرِ وَالجَمَالِ... اسْمُهَا "أَهْمَامَه"، كانت تُنَافِسُ الشَّمْسَ فِي إِشْرَاقِهَا وَالرَبِيعَ فِي بَهْجَتِهِ وَهِي تَرْفلُ فِي لِبَاسِهَا المَوْشُوم بِأَوْسِمَةِ الشَّاوِيَّة، تَعِيشُ فِي قَلبِ الأَوْرَاسِ مُتَنَقِّلَةً كَالأَمِيرَةِ الخَضْرَاءِ بَيْنَ وَادِي الأَبْيَض وَوَادِي عَبْدِي.. آهٍ أَينَ أَنتُم أَيُّهَا الأُمَرَاءُ لِكَيْ تَسْتَمِدُّوا مِن نَضَارَةِ وَجْهِهَا آيَاتِ الفِتْنَةِ وَالدَّلاَلِ؟

يَومَئِـذ كَانَـت الطَبِيعَـةُ تَتَبَـاهَى... تَخْتَـالُ مِـن سِحرهَا... تُغَازِلُ الأَوْرَاسَ بِأَسْرَارِهَا البَدِيعَةِ.

الأوْرَاسُ آيَةٌ قُدُسِيَّةٌ وَهَبَهَا الخَالِقُ البَدِيعُ لِلأَرْضِ فِـي عِيـدِ الطَبِيعَـةِ، هَـذِهِ اللّوحَـةُ الفَنِيَّـةُ الفَاتِنَـةُ فُسَيْفِـسَاءُ البَهَـاءِ العُـذْرِيِّ... نَقْـرَأُ عَلَـى تَضَارِيـسِهَا المَرسُـومَةِ عَلَـى جَبِينِ سُكّانِهَا مَاضِـي أُمَّـةٍ، يَجُـرُّ خَلْفَـهُ قُـرُونًا مِـن الحَضَارَةِ مُنْذُ فَجْـرِ التَـارِيخِ، فِـي رَحِمِهَا قِصَصٌ كَثِيرَةٌ لِمَوَاقِفِ الرُجُولَـةِ وَالبُطُولَةِ....

الأَوْرَاسُ عَـالَمٌ فَرِيـدٌ مِـن نَوْعِـهِ، يَبْـدُو مِـن بَعِيـدٍ كَأَنَّهُ كُتْلَةٌ ضَخْمَةٌ، تُشْرِقُ عَلَى الدُّنْيَا، يَمْنَحُ أُفُقُهَا أَشِـعَّةَ الـشَّمسِ وَنُـورَ القَمَـرِ وَوَمِـيضَ البَـرقِ وَحَبَّـاتِ البَـرَدِ... القَـادِمُونَ إِلَـى الأَوْرَاسِ يَتَـرَدَّدُونَ فِـي اِقْتِحَـامِ هَذَا العَالَمِ العَجِيبِ لأَنَّ التَّوَغُلَ فِيهِ صَعْبٌ..

كُـلُّ الطُـرُقِ تُـؤَدِي إِلَـى الأَوْرَاسِ، أَوَّلُهَـا الطرِيـقُ الــشَمَالِيُّ حَيْــثُ المُرتَفعَــاتُ القَــسَنْطِينِيَّةُ تَفتَــرِشُ السَبْخَات... وَأَجْملهَا الطَرِيقُ الجَنُوبِيُّ المُزَيَّن بِحَدَائِقِ النَخِيـلِ وَوَاحَـاتِ العَسَلِ وَالتُمُـورِ المُمْتَـدَةِ كَـسَّجَادَةٍ مَنْقُوشَةٍ بَسَطَهَا الأَوْرَاسُ لِعَرُوسِ الزِيبَانِ بَسْكَرَة!!

إِنَّ مَن يَتَوَّغَل فِي جِبَالِ الأَوْرَاسِ يَجِد نَفْسَهُ أَمَامَ مَنْظَـرٍ طَبِيعِــيٍّ فِــي غَايَــةِ الجَمَــالِ وَالتَنَــوُّعِ، وَجْـهُ الأَوْرَاسِ كَوَجْـهِ التَـارِيخ صَـحْرَاءُ مِـن الـصُخُورِ تَلِـدُ صَحْرَاء مِن الحَصَى..

قِمَمٌ وَوِهَادٌ.. مُرْتَفَعَاتٌ وَمُنْخَفضَاتٌ.. أَوْدِيَّةٌ كَثِيرَةٌ تُعَـانِقُ رِيَّاضًـا سَـاحِرَةً، وَحَـدَائِقَ مِـن النَّخِيـلِ تُتَـاظِرُ غَابَاتٍ مِن أَشْجَارٍ مُخْتَلِفَةٍ أَوْ هَذِهِ الهِضَابُ العُليَا التِي تَتَـزَوَّجُ الفُـصُولَ فَتَلْبَسُ لِكُـلِّ وَاحِـدٍ حُلَّتَـهُ وَأَجْمَلـهَا

الحلَّـةُ الثَّلْجِيَّـةُ البَيْضَاءُ عِنْدَمَا تَنْعَكِسُ مِنْهَـا أَشِـعَّةُ الـشَّمْسِ، فَتَطْبَـعُ قُبُلاَتِ الـصبَاحِ عَلَـى تَـاجِ الأَوْرَاسِ النَاصِعِ البَيَاضِ، فَيَبْدُو كَسَبِيكَـةٍ ذَهَبِيَّـةٍ لَيْسَ فِيـهِ مَوْضِعٌ أحْسَنُ مِن مَوْضِعٍ.

فِـي وَسَـطِ هَـذِهِ البِيئَـةِ الغَرِيبَـةِ تَبْـدُو القُـرَى فِـي شَـكْلِ مَجْمُوعَـاتٍ مِـن الحُـصُونِ وَالقِـلاَعِ الحَجَرِيَّـةِ المَحْرُوسَـةِ بِأَسْـوَارِهَا العَتِيـدَةِ المَعْزُولَـةِ عَـن العَـالَمِ فِـي رَأسِ جَبَـلٍ أَوْ شَـاطِئٍ صَـخْرِيٍّ كَأَنَّهَـا فِـي سُـبَاتٍ عَمِيقٍ...

هَـاهِيَّ أهْمَامَـة الجَمِيلَـة بَـينَ الـوُرُودِ كَالفَرَاشَـةِ المُغرَمَـةِ بِجَمَـالِ الحُقُـول، أهْمَامَـه تَجِـدُ بَيْضَـة غَرِيبَـة تَتَأَمَلُهَا مَلِيًّا، تَحْمِلُهَا عَلَى عَجَلٍ، كَأَنَّهَا عَثَرَت عَلَى كَـنزٍ ثَمِينٍ، تَلْتَفِتُ فِـي جَمِيـع الاتِجَاهَـات ثُمَّ تَجْـرِي

مُهَرْوِلَةً كَالمَجْنُونَةِ إِلَى مَكَان قَصِيٍّ.. لِتَضَعَ البَيْضَةَ فِي مَكَانٍ أَمِينٍ بَينَ الصُخُورِ ...

مَــاذَا لَــوْ كَــسَرَت أهْمَامَــه البَيْــضَةَ وَعَرَفَــت مُحْتَوَاهَا؟ هَلْ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَاتُرَى؟

وَتَمُــرُّ الأَيَّــامُ.. تَرتَــادُ خِلاَلَهَــا أهْمَامَــة المَكَــانَ... البَيْضَةُ تَفْقِسُ يَخْـرُجُ مِنْـهَا مَخْلُوقٌ صَغِيرٌ فِي صِفَةِ ثُعْبَانٍ.

يَالِلغَرَابَةِ؟ لَمْ تَأْبَه بِهِ أهْمَامَه وَاصلَت تِجوَالَهَا بَيْنَ الحُقُولِ بَحْثًا عَنْ نَفْسِهَا.. ثُمَّ مَاذَا لَو قَتَلَتْ أهْمَامَه الثُعْبَانَ.. هَلْ تُصبِحُ لِقِصَّتِهَا نِهَايَة؟

مَرَّت الأَيَّامُ وَالثُعبَانُ الصَغِيرُ يَكبْرُ وَيَكْبرُ.. إِلَى أَنْ صَارَ عِمْلاَقًا يُهَدِّدُ أَمْنَ السُّكَانِ فِي حَيَاتِهِم وَمَوَاشِيهِم وَمَرَاعِيهِم..

احْتَارَ السُّكَانُ فِي الأَمْرِ أَيامًا كَثِيرَةً وَهَاهِيَّ حيرَتُهُم الشَّدِيدَة تُجبِرُهُم عَلَى اتِخَاذِ قَرَارٍ حَاسِمٍ... لاَبُّدَ مِن مُقَاوَمَةِ الثُّعْبَانِ..

وبَعْدَ قِتَالٍ مَرِيرٍ.. انْتَصَرَ القَرَوِيُّون عَلَى العِمْلاَقِ وَطَرَحُوهُ عَلَى الأَرْضِ صَرِيعًا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى إِحْضَارِ أَكْوَامِ الحَطَبِ لِحَرْقِهِ وَمَحْوِ آثَارِهِ فَكَوَّمُوا جِسْمَهُ بِالحَطَبِ وَأَشْعَلُوا النَّارَ وَسَطَ الأَهَازِيجِ وَالأَغَانِي.. وَبَدَأَ الدُّخَانُ يَتَعَالَى حَامِلاً رَائِحَةَ الاحتِرَاقِ... وَفَجْأَةً غَطَّت سَمَاءَ الحَاضِرِينَ سَحَابَةٌ مِن النَّحْلِ القَادِمِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ.

انْدَهَشَ الحَاضِرُونَ وعَادَت الحيرَةُ مِنْ جَدِيدٍ وَهُم يُشَاهِدُونَ أَسْرَابَ النَحْلِ تُقْبِلُ فَتَمْتَصُّ إِفْرَازَاتِ جِسْمِ الثُّعْبَانِ المُحْتَرِقِ كَامْتِصَاصِهَا رَحِيقَ الأَزْهَارِ...

إِنَّهَا الكَارِثَةُ الكُبْرَى.. السُمُّ فِي العَسَلِ.. هَلْ سَنَمُوتُ جَمِيعًا إِذَا ذُقْنَا عَسَلَ النَّحْلِ المَمْزُوجِ بِسُمٍّ الثُّعْبَانِ؟

هَكَذَا تَسَاءَلَ الحَاضِرُونَ... ثُمَّ انْصَرَفُوا يُفَكِرُونَ فِي مَخْرَجٍ لِلنَّجَاةِ مِن الخَطَرِ الَّذِي صَوَّرَتْهُ لَهُم أَفْكَارُهُم..

قَالُوا:

- "لاَ بُدَّ أَنْ يَتَطَوَّعَ أحَدٌ لِلاخْتِبَارِ.. إِمَّا حَيَاةٌ أَوْمَوْتٌ.

لَكِن مَن يَتَجَرَأُ عَلَى ذَلِكَ؟ مَن يُغَامِرُ بِنَفْسِهِ؟

بَعْدَ صَمْتٍ قَصِيرٍ كَأَنَّهُ دَهْرٌ، نَطَقَ أَحَدُهُم:

- الحَلُّ عِنْدَ الشَّيْخِ "بُورَاك" نُطْعِمُهُ العَسَلَ لِنَرَى النَتِيجَةَ؟

صَفَّقَ الجَمِيعُ مُبْتَهِجِينَ بِالفِكْرَةِ... قَائِلِينَ:

- الشَّيْخُ "بُورَاك" فِي أَرْذَلِ العُمْرِ... عَلَى حَافَّةِ القَبْرِ... إِذَا مَاتَ مَسْمُومًا فَقَدْ اسْتَرَاحَ مِن تَعَبِ الدُّنْيَا وَقَدْ أَنْهَكَهُ الفَقْرُ بَعْدَ أَنْ أَعْجَزَهُ الدَّهْرُ.. وَبِذَلِكَ نَكُونُ قَدْ أَنْجَزْنَا التَجْرِبَةَ وَعَرَفْنَا الحَقِيقَةَ...

وَلَمَّا حَانَ مَوْسِمُ الشَهْدِ والعَسَلِ.. بَحَثُوا عَنْ الشَّيْخِ "بُورَاك" حَتَّى وَجَدُوهُ وَقَدْ لَجَبَ الجَنْبَان وَاحْدَوْدَبَ الظَّهْرُ... وَانْطَفَأَ نُورُ البَصَرِ، "الفَمُ رَاب وَالرَأسُ شَاب وَالظَهْرُ عَاب وَتَفَرَّقَ الأَحْبَاب..."

قُدِّمَ العَسَلُ المَسْمُومُ إِلَى الشَّيْخِ المِسْكِينِ.. وَوَقَفَ الجَمِيعُ فِي انْتِظَارِ المَوْتِ المَحْتُومِ.. فَأَقْبَلَت الحَيَاةُ؟ حَدَثَ مَا لَمْ يَخْطُر عَلَى بَالِ بَشَرٍ، إِنَّهَا المُعْجِزَةُ حَقًّا!!.

لقَدْ اسْتَعَادَ الشَّيْخُ الأَعْمَى بَصَرَهُ مِنْ جَدِيدٍ بَعْدَ أَنْ تَجَرَّعَ العَسَلَ !!

لَمْ يُصَدِّق الحَاضِرُونَ المَشْهَدَ وَحَتَّى الشَّيْخُ بَدأَ يَتَلَمَّسُ الحَاضِرِينَ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ؟

ثُمَّ بَدأَ يَسْتَعِيدُ شَبَابَهُ، فَاسوَّدَ شَعْرُهُ وَاسْتَقَامَ ظَهْرُهُ وَتَزَيَّنَ فَمُهُ بِالأَسْنَانِ والأَضْرَاسِ وعَادَ رَبِيعُ العُمْرِ إِلَى جِسْمِهِ...!!

ذَهلَ الجَمِيع... وانْبَهَرَ الشَّيْخُ لِحَالِهِ ثُمَّ قَالَ:

- إنَّ لِلَّه جُنُودًا مِن عسَلٍ .. هَذَا جَزَاءُ مَنْ يَتوكَّلُ عَلَى اللّهِ.. نَعَمْ لَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَال: اتَقِ اللّهَ تَرَى العَجَائِب..

تَأَسَّفَ القَرَوِيُّونَ لِسُوءِ نِيَّتِهِم... وَطَلَبُوا مِنهُ الصَفْحَ

وَالسَمَاحَ لَكِنَّ الشَّيْخَ عَاتَبَهُم قَائِلاً:

- أَيُّهَا الأَوْغَاد... أَرَدْتُم قَتْلِي؟

طَأْطَأَ الحَاضِرُونَ رُؤُوسَهُم وَوَاصَلَ الشَّيْخُ الشاب "بُورَاك" كَلاَمَهُ:

- إِنِّي أُطَالِبُ بِالدِّيَةِ المَشْرُوعَةِ..

قَالَ أَحَدُهُم فِي اسْتِحْيَاءٍ:

- أُطْلُبْ مَا شِئْتَ..

قَالَ الشَّيْخُ "بُورَاك:

- دِيَّتِي.. "أَهْمَامَه".. الزَّوَاجُ بأَهْمَامَه زِيْنَة البَنَات..

فَوَافَقَ وَالِدُهَا الَّذِي كَانَ حَاضِرًا مَعَ القَومِ.. تَزَوَّجَ الشَّيْخُ دِيَّتَهُ "العَرُوس أَهْمَامَه" وَعَاشَا رَدْحًا مِن الزَّمَنِ فِي غِبْطَةٍ وَسُرُورٍ، أَنْجَبَا أَطْفَالاً أُطْلِقَ عَلَيْهِم

اسْم أَوْلاَد عَبْدِي..

ومَعَ الأَيَّامِ بَدأَ جَمَالُ "أَهْمَامَه" يَذْبُلُ كُلَّمَا تَقَدَّمَ بِهَا العُمْرُ رَغْمَ مُحَاوَلَتِهَا الحِفَاظَ عَلَيهِ بِأَنْوَاعِ العَقَاقِيرِ وَلَكِنَّ الزَّمَنَ لاَ يَرْحَم.. وَهَلْ يُصلِحُ العَطَّارُ مَا أَفْسَدَهُ الدَّهْرُ؟

وَكُلَّمَا مَرَّتِ السُنُونُ ازْدَادَ الشَّيْخُ الشاب فُتُوَّةً وَعُنْفُوانًا حَتَّى صَارَ كَابْنِ العِشْرِينَ صِحَّةً وَجَمَالاً وثراء... فَاختَارَ فتَاةً شَابَّةً اسْمُهَا "توبَة" وَتَزَوَّجَهَا بَعْدَمَا فَارَقَ "أَهْمَامَه" ، تَارِكًا إِيَّاهَا مَعَ أَبْنَائِهَا أَوْلاد عَبْدِي فِي نَاحِيَةٍ مِن ضِفَافِ الوَادِي وَسَكَنَ مَعَ زَوْجَتِهِ الثَانِية "توبَة" عَلَى ضِفَّةِ النَّهَرِ الأُخْرَى "المُقَابِلَة" فَأَنْجَبَ مَعَهَا أطفَالاَ أُطْلِقَ عَلَيْهِم اسْم "التَوَّابَة"..

وَبَدأَ النهر الَّذِي يَفصِلُ بَيْنَ المَرأَتَين وَذُرِيَّةِ الشَّيْخِ يَشْهَدُ فِي صَمْتٍ مِيْلادَ الفِتْنَةِ بسبب الطمع في الاستيلاء على الميرَاث... الصِرَاعُ المُرُّ بَيْنَ الإِخْوَة الفُرقَاء.. الإِخْوَة الأَعْدَاء.. أوْلاد عبْدِي وَالتَوَّابَة أَبْنَاء الأَبِ الوَاحِدِ.

العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ يَنْمُوانِ عَلَى ضِفَّتَي النَّهَرِ.. فَيَرْضَعُهُمَا الأَطْفَالُ مَعَ حَلِيبِ المَرْأتَين.. وَيَشْرَبُهُمَا الكِبَار جُرُعَاتِ حِقْدٍ مِن مَجْرَى الوَادِي الحَزِينِ.. وَيَتَوَارَثهُمَا أَحْفَادُ القَبِيلَتَين جِيْلاً بَعْدَ جِيلٍ.. وَيَلْبَسُ الأَوْرَاسُ رِدَاءَ الخَطَرِ.. ثُمَّ يُعْلِنُ ثَوْرَةَ الغَضَبِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الشَّيْخِ الشَّاب، بِلُغَةٍ قَاسِيَّةٍ أَدَوَاتُهَا كُلُّهَا غَيْضٌ وَفَيْضٌ، كَرٌّ وَفَرٌّ اعْتِدَاءٌ فَانْتِقَامٌ...

سَكَنَ الهَلَعُ قُلُوبَ الأَهَالِي فِي القُرَى وَالمَدَاشِرِ، وانْعَدَمَ الأَمْنُ فِي رُبُوعِ الأَوْرَاسِ وَحَلَّت مَحَلَّهُ أَعرَاسُ الـدَّمِ، مَـعَ زَغَارِيـدِ البَـارُودِ فِـي الـسُفُوحِ وَالوِهَـادِ، وَسَائِرِ مَرَابِعِ الشَاوِيَّة.

لَكِـن دَوَامُ الحَـالِ مِـنَ المُحَـال وَالأُخُـوَّةُ لاَ تُبَـاعُ بِالمَـال كَمَـا يُقَـال، وَلأَنَّ الـزَّمَنَ طَبِيـبٌ فَقَـدْ ضَـمَّدَ الجِـرَاحَ بِهُـدُوءٍ حَتَّـى التَأَمَـت، بَعـدَ أَنْ جَـاءَت أَيَّـامُ العُسْرَةِ تِبَاعًا عِنْدَمَا أَقبَلَ قَومٌ مِنْ وَرَاءِ البَحـرِ احتَلُّوا الوَطَنَ فَشَرَّدُوا سُكَانَّهُ وَنَهَبُوا خَيْرَاتِهِ.

فَالتَحَمَـت القَبِيلَتَـان فِـي صَـفٍّ وَاحِـدٍ وَحَـارَبُوا الأَعْدَاءِ فِي مُقَاوَمَةٍ شَهِدَ لَهَا التَّارِيخُ بِالجَلاَلِ، حَتَّـى تَحَقَّقَ النَصْرُ المُبِينُ عَلَى المُحْتَلِين، فَجَرَى مَاءُ الوَادِي غَـسُولاً طَهُـورًا لِلْقُلُـوبِ الـسَوْدَاءِ فَابْيَـضَّت، وَأَضَـاءَ العَقْلُ بِحِكْمَتِهِ بَصِيرَةَ المُتَخَاصِمِين..

فَتَعَـــانَقَ الجَمِيـــعُ وَامْتَزَجَـــت دُمُـــوعُهُم فَرَحًـــا.. بِالتَّسَامُـحِ وَالمَحَبَّةِ بَيْنَهُم.

وَلَبَسَ الجَمِيعُ أَثْوَابَ المَحَبَّةِ وَالهَنَاءِ بَعْدَ الخِـلاَفِ والجَفَـاءِ... وغَنَّـــى الأَطْفَـالُ... لِيَمْتَـدَّ رَبِيـعُ الأَوْرَاسِ طُولَ الدَّهْرِ...

بنت السلطان

بنت السلطان

كَـان يَـا مَـكَـان فِـي سَـالِـفِ العَصْـرِ والأَوَان مَلِكٌ يَعِيـشُ مَـعَ ابنَتِهِ الوحِيدَةِ... اسْمُـهَا "كَـنْـزَة".

فِـي أَحَدِ الأَيَّـامِ جلَسَ عَلى كُرْسِيِّ العَرشِ وَقُرْبهُ ابْنَتـهُ، مُبْتَهِجًـا بِبَرْنُوسِـهِ الأَحْمَـرِ، مُطْمَـئِنًا بالهَنَـاءِ والأَمَـانِ الـمُنْتَـشِرِينِ فِـي أَنْحَـاءِ الـبِلاَد... تَأَمّـلَ اِبْنَتَـهُ الأَمِيرَة "كنْزَة" وبَدَأَ يُفَكِّـرُ فِي العَرِيسِ الـمُلائِمِ لَهَا.

بَعْدَ حينٍ خَطـرَتْ عَلـى بَالِـهِ فِـكْـرَةٌ طَرِيفَـةٌ حَـوْلَ زَوَاجِ ابْنَتِـهِ، هِــي إِجْـرَاءُ امْتِحَــانٍ لِخُـطَّـابِ ابْنَتِـهِ...

وَالفَائِزُ مِنْهُمْ سَيُصْبِحُ صِهْراً لَهُ..!!

جَاءَ اليَوْمُ الـمَعْلُومُ فَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ العَـرْشِ وَأَمَامَـهُ جَـرَّةٌ بِدَاخِلِهاِ شَـيءٌ مَجْـهُولٌ، ،

طَلَبَ الـمَلِكُ مِن الشَّبَابِ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ الشَّيءِ الَّذِي بِدَاخِلِ الجَرَّةِ.

تَقَـدَّمَ حَشْدٌ مِـن الفُرسَـانِ يَطْلُبُـونَ يَدَ الأَمِيـرَةِ يُجَـرِّبُونَ حُظُوظَهُم فِي يَومٍ مَشْهُودٍ، حَاوَلُوا مَعْرِفَةَ مَـا بِدَاخِـلِ الجـرَّةِ... لَكِنَّهُـم أَخْفَقُـوا كُلُّهُـم فِـي الامْتِحَانِ، مِنْهُم مَنْ قَـالَ: يُوجَدُ تُفَّـاحٌ، وَآخَـرُ قَـالَ: ذَهَبٌ، وَمَنْ قَـالَ: رَأَسُ قِـردٍ، وَآخَـر قَـالَ: كُتُـبٌ، وَآخَـرُ قَـالَ: ثُعْبَـانٌ... وَعَـادَ كُـلٌّ وَاحِـدٍ إِلى بَيْتِـهِ مَكْسُورَ الخَاطِرِ وَالوجْدَانِ.

وَكَانَ آخِرُ مَنْ قَـدِمَ إِلَـى قَصْرِ الـسُّلطَانِ شَـابٌّ

وَسِيمٌ يَرْتَـدِي مَلاَبِسًا مُتَوَاضِعَةً، تَسْبِقُهُ ابْتِسَامَتُهُ الـمُشْرِقَةُ.

حِينَمَـا رَأتْـهُ الأَمِـيرَةُ أُعجِبَـتْ بِرِقَّتِـهِ وأَنَاقَتِـهُ، فَبَـدَأتْ تُـشِيرُ لَـهُ مِـنْ وَرَاءِ الـسِّتَارِ بِـمَا يَـدُلُّ عَلَـى الجَوَابِ، ، فَقَالَ الشّابُ للمَلكِ:

- تُوجَدُ دَاخِلَ الجَرّةِ وَرْدَةٌ حَمْرَاءُ...

تَهَلَّلَ وَجْهُ السُّلطَانِ بِالبُشْرَى وَهَنَّأَ الشَابَّ عَلَى النَّجَاحِ، ثُمَّ زَوَّجَهُ ابْنَتَهُ "كَنْزَةَ" وَفَاءً بِعَهْدِهِ.

أُقِيـمَت الأَعْـرَاسُ البَهِيجَـةُ الحَافِلَـةُ بِأَهَـازِيجِ الطَّـرَبِ الـمَلِيئَةِ بِـمَا لَـذَّ وَطَـابَ مِنْ طَعَـامٍ وَلُحُـومٍ وَفَوَاكِهَ وَحَلَوِياتٍ...

وَذَاتَ يَـومٍ لَـيْـسَ كَغَيْـرِهِ مِـنَ الأَيَّـامِ، فِـي الـصَّبَاحِ البَاكِـرِ عَـادَ الـشَّاب إِلَـى أَصْلِـهِ، ،

إِلىَ صُورَتِهِ الحَقِيقِيَّةِ، ، وَحْشٌ غَابِيٌّ، ، حَمَلَ الأَمِيرَةَ عُنْوَةً إِلَى قِمَّةِ الجَبَلِ بَعْدَمَا كَمَّمَ فَمَهَا بِقِطْعَةٍ مِنَ القُمَاشِ كَيْ لاَ تَسْتَطِيعَ الصُّرَاخَ، وَفِي قَلْعَتِهِ أَغْلَقَ حَوْلَهَا كُلَّ الأَبْوَابِ وَأَوْصَدَهَا بِالحَدِيدِ وَأَرْهَبَهَا بِالتَّهْدِيدِ وَالوَعِيدِ...

احْتَارَ السُّلطَانُ وَحَزِنَ لِغِيَابِ ابْنَتِهِ الوَحِيدَةِ، ، وَمِمَّا زَادَ فِي حُزْنِهِ وَعَذَابِهِ جَهْلُهُ بِأَخْبَارِهَا وبِمَصِيرِهَا...

فَكَّرَ مَلِيًّا فَخَطَرَتْ بِبَالِهِ فِكْرَةٌ، ، تَذَكَّرَ حَمَامَةَ السَّلاَمِ البَيْضَاءَ، ، ، الحَمَامَةُ الزَّاجِلَةُ، ، حَامِلَةُ بَرِيدِهِ إِلَى الأُمَرَاءِ وَالسَّلاَطِينِ فِي كُلِّ البُلْدَانِ... فَكَتَبَ مَخْطُوطًا وَعَلَّقَهُ بِرِجْلِهَا اليُسْرَى... وَأَوْصَاهَا قَائِلاً:

- يَا حَمَامَةَ السَّلاَمِ هَذَا كِتَابٌ خُذِيهِ أَمَانَةً إِلَى ابْنَتِي الغَائِبَةِ، ، ابْحَثِي عَنْهَا فِي الأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ، فِي كُلِّ مَكَانٍ بِالمَعْمُورَةِ وَاحْذَرِي أَنْ تُسَلِّمِيهِ لِغَيرِهَا.. لاَ تَرْجِعِي إِلَى القَصْرِ حَتَّى تُبَلِّغِيهَا الرِّسَالَةَ وَتَأْتِي بِأَخْبَارِ أَمِيرَةِ البَنَاتِ.

طَارَتِ الحَمَامَةُ تَقْطَعُ الجِبَالَ وَالوِدْيَانَ، ، تَمُرُّ عَلَى القُصُورِ وَالجُسُورِ وَالمُدُنِ وَالقُرَى.. بَاحِثَةً عَنْ الأَمِيرَةِ المَفقُودَةِ، ، تُوَاجِهُ العَوَاصِفَ وَزَمْهَرِيرَ الرِّيَّاحِ، ورَذَاذَ المَطَرِ وَوَابِلَه، وَلَمَّا وَصَلَتِ الحَمَامَةُ البَيْضَاءُ إِلَى قَلْعَةٍ حَدِيدِيَّةٍ أَخْبَرَهَا هَاجِسٌ غَرِيزِيٌّ بِوَاسِطَةِ حَوَاسِّهَا أَنَّ صَاحِبَتَهَا الأَمِيرَة مَوْجُودَةٌ فِي هَذِهِ القَلْعَةِ المَهْجُورَةِ، ، فَبَدَأَت تَحُومُ فِي فَضَاءِ القَلْعَةِ وَاسْتَمَرَّت

فِـي رَقَـصَاتِهَا الاسْتِطْلاَعِيَّـةِ حَتَّـى لَمَحَـت الأَمِيـرَةَ "كَنْـزَة" قَادِمَةً نَحْوَهَا وَالابْتِسَامَةُ الحَزِينَـةُ تَفْتَـرِشُ مُحَيَّاهَا الذَّابِلِ.

نَظَــرَت إِلَــى الحَمَامَــةِ الطَّلِيقَــةِ مُسْتَبْــشِرَةً كَسَجِينَةٍ اقْتَرَبَ مَوْعِدُ تَسْرِيحِهَا، وَهَتَفَت:

- آه، أَيَّتُهَا الحَمَامَةُ البَيْضَاءُ، ، يَا رَائِحَةَ الأَهْلِ الـمُقبِلَة، يَا حَمَامَـةَ الـسُّلْطَانِ العَزِيـزِ، هَلْ تَعَرَّفْتِ عَلَـى الَّتِـي كَانَـت تُقَـدِّمُ لَـكِ الحَـبَّ والحُـبَّ؟! اقْتَرِبِي، ، حُطِّي عَلَى رُكبَتِـي هَذِهِ، ، قَبْلَ عَـوْدَةِ الوَحْـشِ الـشَّرِسِ، الـذِي أَغْرَانِـي بِزَيْـفِ جَمَالِـهِ فَلَـمْ أَسْأَلْ عَنْ أَخْلاَقِهِ وَعَمَلِهِ.

أَحَـسَّتِ الحَمَــامَةُ بِــشُعُورِ الأَمِيــرَةِ فَحَطَّــت قُرْبَهَــا، ، احْتَـضَنَت الأَمِيـرَةُ الحَمَــامَةَ وَقَبَّلَتــهَا

بِحَرَارَةٍ مَمْزُوجَةٍ بِدُمُوعِ الشَّوْقِ وَالأَلَمِ ثُمَّ اكْتَشَفَتِ الرِّسَالَةَ فَأَخَذَتْهَا مِن رِجْلِهَا وَقَرَأَتْهَا...

فَهِمَت مَا احْتَوَتْهُ فَبَكَت وَكَتَبَتْ فِي الحِينِ إِلَى وَالِدِهَا تَحْكِي لَهُ المُعَانَاة ومَرَارَةَ العَيْشِ التِي تَجَرَّعَتْهَا عِنْدَ الوَحْشِ (الشَّابِ)، لَقَدْ نَدِمَت كَثِيرًا عَلَى زَوَاجِهَا وَاختِيارِهَا المُتَسَرِّعِ لِلجَمَال الغَادِر... طَارَتِ الحَمَامَةُ عَائِدَةً بِالمرسَالِ وَالأَخْبَارِ إِلَى السُّلطَانِ...

أَمْسَكَ السُّلطَانُ الرِّسَالَةَ فَرِحًا... وَعِنْدَ قِرَاءَتهَا شَعَرَ بِنَوبَةٍ مِن الأَسَى تَحتَوِيهِ مِن جَدِيدٍ، ، فَطَلَبَ إِحْضَارَ "الشَّيْخِ المُدَبِّر" لِيُشِيرَ عَلَيهِ بِرَأي يُنْقِذُ ابْنَتَه مِنْ هَذَا الشَّابِ المُتَوحِّشِ، وَلَمَّا قَدِمَ سَأَلَهُ:

- هَل يُفْلِحُ الجَيشُ فِي استِعْمَالِ القُوَّةِ لاستِعَادَةِ

الأَمِيـرَةَ "كَـنْـزَةَ" مِن الـمُـخْتَطِـفِ؟!

أَقَـامَ الشَّيـخُ الـمُـدَبِّرُ فِـي جَنَـاحٍ خَـاصٍّ، وعِنْـدَمَا عَـرَضَ عَلَيـهِ الـمَلِكُ الأَمْـرَ لَـمْ يُوَافِـق عَلَـى إِرْسَـالِ الجَيْشِ إِلَـى القَلْعَةِ الحَدِيدِيَّةِ، لأَنَّ الشَّـابَّ الـمُتَوَحِّشَ قَـدْ يَنْتَقِـمُ مِـنَ الأَسِيـرَةِ عِنْـدَ رُؤيَـةِ الجُنْـدِ قـادِمِينَ نَحْـوَهُ، وأَشَـارَ عَلَيــهِ بِالذَّهَـابِ إِلَـى القَلْعَـةِ وَالتَّسَـلُّلِ دَاخِلَهَـا بِحِكْمَـةٍ وَشَجَاعَـةٍ، وَدَلَّـهُ عَلَـى مَجْمُوعَـةِ فُرْسَـانٍ، يَـمْتَازُونَ بِهَاتَيـنِ الـصِّفَتَيْنِ... إِنَّهُـم أَبْنَـاءُ العَجُوزِ.

ذَهَـبَ الـسُّلطَان حَيْـثُ العَجُـوزُ وَرَوَى لَهَـا مَـرَارَةَ مُعَانَاتِـهِ بَعْـدَ اخْتِـطَافِ ابْنَتِـهُ، وَوَعَدَهَـا بِالعَيْـشِ النَّعِـيمِ هِـي وَأَوْلاَدُهَـا إِنْ أَعَـادُوا لَـهُ فِلْـذَةَ كَبِـدِهِ الأَمِيرَةَ "كَنْزَةَ"...

فَكَّرَت العَجُوزُ كَثِيرًا وَمَلِيًّا، وَبَعْدَ تَمْحِيصٍ وَتَدْقِيقٍ فِي المَوْضُوعِ طَلَبَت مِنْ حُرَّاسِ المَلِكِ إِحْضَارَ الصُّوفِ والحَرِيرِ، فَأَحْضَرَهُمَا الحُرَّاسُ عَلَى جَنَاحِ السُّرْعَةِ...

شَرَعَتِ العَجُوزُ الأَرْمَلَةُ فِي حِيَّاكَةِ الصُّوفِ حَيْثُ جَلَسَت عَلَى الأَرْضِ وَاضِعَةً بَيْنَ رُكْبَتَيْهَا المِغْزَلَ وَبَدَأَت تَغْزِلُ الصُّوفَ مَعَ الحَرِيرِ ثُمَّ قَامَت بِنَسْجِهِ، حَتَّى أَخَذَ شَكْلَ ثَوبٍ مَرْقُومٍ بِأَشْكَالٍ وَأَلْوَانٍ زَاهِيَةٍ، وَحِينَ أحَسَّت بِقُدُومِ أَبْنَائِهَا السَّبْعَة طَلَبَت مِن المَلِكِ الاخْتِبَاءَ خَلْفَ البَابِ الخَشَبِيِّ...

دَخَلَ الشُّبّانُ عَلَى أُمِّهِمُ المُنْهَمِكَةُ فِي الحِيَّاكَةِ فَسَعِدُوا لِنَشَاطِهَا ثُمَّ بَدَؤُوا يَسْأَلُونَ وَيَسْتَفْسِرُونَ عَمَّ تَصْنَعُهُ، وَلِمَنْ هَذَا القَمِيصُ

الجَمِيـلُ؟!، دُونَ أَنْ يَـشْعُـرُوا بِـوُجُـودِ غَرِيـبٍ خَلْـفَ البَابِ...

رَدَّتِ الأُمُّ وَهِي تَبْتَسِمُ:

"لِمَـنْ يَـسْتَحِقُّهُ مِـنْكُمْ يَـا أَبْنَـائِي، لِلـشُّجَاعِ الحَكِيمِ... الَّذِي يُحَقِّقُ لِي أُمْنِيَـةً لَكِنَّهاَ مَحْفُوفَةٌ بِالمَخَاطِرِ.."

بَدَأَ الإِخْوَةُ فِي اسْتَعْـرَاضِ قُوَّتِهِـم وَشَجَاعَتِهِـم وَالسُّلطَانُ خَلْفَ البَابِ يَسْتَمِعُ، يُقَطِّبُ حَاجِبَيْهِ تَـارَةً وَيَبْتَسِمُ تَـارَةً أُخْـرَى، ثُـمَّ خَـرَجَ مِن وَرَاءِ البَـابِ وَخَاطَبَهُـم وَهُـم فِـي دَهشَـةٍ مِن وجُودِهِ بَينَهُم، فَقَالَ:

- الحَمْدُ للّهِ لَقَدْ عَثَرْتُ عَلَـى أَشْجَعِ الفُرْسَانِ، مَـا عَلَيكُم أَيُّهَـا الفُرْسَـانُ سِـوَى إِنْقَـاذ ابْنَتِـي مِـن قَبْضَةِ الوَحْشِ وَأَعِدُكُم بِالثَّرَاءِ وَالجَـاه وَمَـا تُرِيدُونَ

إنْ وُفِّقْتُـم فِي مُهِمَّتِكُم بِمَشِيئَةِ الخَالِقِ...

قَـادَ الأَخُ الأَكْبَـرُ إِخْوَتَـهُ السِّتَّةَ، وَكَـانَ يَـمْتَازُ بِدِقَّـةِ النَّظَـرِ وَسَـدَادِ الـرَّأْيِ وَالحِنْكَـةِ العَـالِيَـةِ وَالدَّهَـاءِ الكَبِيرِ، هَـاهُم يَمْشُونَ خَلْفَ الحَمَامَـةِ الطَّائِرَة، يَقْطَعُـونَ أَشْوَاطًا لِلْعُثُورِ عَلَى الأَمِيرَةِ، وَمَـا هِيَ إلاَّ أَيَّامٌ حَتَّى رَأَوْا فِـي قِمَّـةِ الجَبَـلِ قَـلْعَةً يَلُفُّـهُا الـضَّبَـابُ كَـالثَّـوبِ الـشَّفَّافِ، وَبَعْـدَ الغُـرُوبِ رَأَوْا طُيُورًا تَحُومُ حَوْلَهَا، إِنَّهَا الخَفَـافِيشُ، تَحْـرُسُـهَا مِنْ كُلِّ غَرِيبٍ يَقْتَرِبُ مِن أَسْـوَارِهَا الـمُحِيطَـةِ بِهَا...

لَقَدْ كَانَ مَنْظَـرُ القَلْعَـةِ مُرْعِبًا يُدْخِلُ الفَـزَعَ فِـي قُلُـوبِ الـمُـشَاهِدِين، لَكِـنَّ الإِخْـوَةَ الـسَّبْعَة لَـمْ يَتَأَثَّرُوا لِذَلِكَ وَلَمْ يُثْنِ مِن عَزْمِهِم الشَّكْلُ الخَارِجِيُّ الـرَهِّيـبُ...

وَقَـفَ الإِخْـوَةُ يَتَـشَاوَرُونَ وَيُخَطِّطُـونَ لِلـدُّخُولِ وَكَذَا يَرْصُدُونَ حَرَكَـةَ الوَحْشِ حِينَ دُخُولِهِ.

وَلَمَّا عَادَ فِي المَسَاءِ وَفَتَحَ الأَبْـوَابَ الحَدِيدِيَّـةَ السَّبْعَةَ ثُـمَّ أَغْلَقَهَـا وَرَاءَهُ بِـمَفَاتِيحَ مُخْتَلِفَـةٍ... كَانَ الإِخْوَةُ قَدْ اتَّفَقُوا عَلَى خُطَّةِ العَمَلِ.

فِـي مُنْتَصَفِ اللَّيـلِ بَعْـدَ أَنْ دَخَلَـتِ الخَفَافِيـشُ الكُهُوفَ تَـسَلَّلَ الإِخْـوَةُ دَاخِـلَ القَلْعَـةِ الحَدِيدِيـةِ بِوَاسِطَةِ حَبْـلٍ طَوِيـلٍ، تَعَلَّقُـوا بِـهِ ثُـمَّ نَزَلُـوا سَـاحَةَ القَصْرِ فِي هُدُوءٍ تَامٍّ... سَمِعَ الإِخْوَةُ السَّبْعَةُ بَعْـدَمَا اقْتَرَبُـوا مِـن بَـابِ القَلْعـة شَـخِيرَ الـوَحْشِ يَنْبَعِـثُ مِـن غُرْفَةِ النَّومِ مُدَوِّيًا فِـي سُكُونِ اللَّيـلِ كَشَلَّالِ المَاءِ الـمُتَدَفِّقِ مِـنَ الأَعَـالِي، ثُـمَّ صَـعَدُوا أَدْرَاجَ القَلْعَـةِ الوَاحِدُ تِلْوَ الآخـرِ، وَفِـي مَهَارَةٍ عَجِيبَـةٍ اسْتَطَاعَ الأَخُ

الأَكْبَرُ فَتْحَ الأَبْوَابِ الـمُغْلَقَةِ وَالوُصُولَ إِلَى مَخْدَعِ الوَحْشِ حَيْثُ وَجَدَ الأَمِيرَةَ نَائِمَةً وَضَفَائِرُ شَعْرِهَا مَشْدُودَةٌ بِيَدِهِ الغَلِيظَةِ، ، كَانَت مُسْتَسْلِمَةً، ، بَائِسَةً، ، شَاحِبَةَ الوَجْهِ، ، نَحِيفَةَ الجِسْمِ، ، تَنَامُ فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ..

مَدَّ الشَّابُ يَدَهُ نَحْوَ شَعْرِهَا مُحَاوِلاً فَكَّ ضَفَائِرِهَا مِن قَبْضَةِ الوَحْشِ، ، فَاسْتَيقَظَتِ الأَمِيرَةُ "كَنْزَةَ" مَذْعُورَةً لَكِنَّ الشَّابَّ وَضَعَ رَاحَةَ كَفِّهِ عَلَى فَمِهَا يَمْنَعُهَا مِن الصُّرَاخِ ثُمَّ طَمْأَنَهَا بِإِشَارَةٍ مِن مَلاَمِحِ وَجْهِهِ مَصْحُوبَةً بِابْتِسَامَةٍ، فَاسْتَبْشَرَت بِخَلاَصِهَا، وَقَصَّ شَعْرَهَا الَّذِي تُمْسِكُ بِهِ يَدُ الوَحْشِ وَسَارَعَت إِلىَ الهُرُوبِ مَعَ الشَّابِّ وَإِخْوَتِهِ سَالِكِينَ الطَّرِيقَ الغَابِيَّ.

تَحَسَّسَ الشَّابُّ المُتَوحِّشُ الفِرَاشَ فَلَمْ يَجِد الأَمِيرَةَ بِجَانِبِهِ، ، وَجَدَ بِيَدِهِ خصلَةً مِنْ شَعْرِهَا فَقَط، ، فَفَزِعَ وَفَاضَ غَيْظُهُ، صَرَخَ صَرْخَةً تُوقِظُ المَوْتَى مِن قُبُورِهِم فَاسْتَيْقَظَت حَيَوَانَاتُ الغَابَةِ وَطَارَت العَصَافِيرُ مِنْ أَعْشَاشِهَا مَرْعُوبَةً، ، كَانَ الزَّبَدُ يَسِيلُ مِن فَمِهِ وَهُوَ يَبْحَثُ عَنْهَا

فِي القَلعَة وَسَاحَتِهَا.. ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الغَابَةِ يُقَطِّعُ.. يُكَسِّرُ أغْصَانَ الأَشْجَارِ بِأَسْنَانِهِ وَيَدُوسُهَا بِقَدَمَيهِ الكَبِيرَتَينِ وَالخَفَافِيشُ فَوْقَهُ تُشَارِكُهُ العَاصِفَةَ، إِنَّهُ الوَحْشُ الغَاضِب...

اهْتَزَّت الأَرْضُ تَحْتَ أَقْدَامِ الإِخْوَة السَّبْعَة فَوَقَفُوا حَائِرِينَ، ، الوَحْشُ يَتَقَدَّمُ نَحْوَهُم وَالشَّرَرُ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ... قَالَ أَصغَرُ الإِخوَةِ:

- لِي فِكْرَةٌ، ، نَفِرُّ مِنْ الوَحْشِ بَعْدَ أَنْ نُشْعِلَ النَّارَ فِي الغَابَةِ فَيَحْتَرِقَ هُو وَنَنْجُو نَحْنُ مَعَ الأَمِيرَةِ...

عَارَضَهُ أَكبَرُهُم قَائِلاً:

- هَلْ تُرِيدُ أَنْ نَحرِقَ أَنْفُسَنَا وَنَحْنُ أَحْيَاء؟

وَهَلْ نَسَيْتَ أَنَّ الشَّجَرَةَ مُقَدَّسَةٌ فِي أَعْرَافِنَا وَلاَيَجُوزُ حَرْقُهَا؟! أَيْنَ شَجَاعَتُكُم؟

وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ الوَحْشُ المَكَانَ هَاجَمَهُ الشُّبَّانُ بِقُوَّةِ الأُسُودِ وَشَجَاعَةِ الأَبْطَالِ وَخِفَّةِ الطُّيُورِ وَمَهَارَةِ الفُرْسَانِ، ، فَانْهَالُوا عَلَيهِ بِوابِلٍ مِنْ ضَرَبَاتِ السُّيُوفِ حَتَّى أَسْقَطُوهُ أَرْضًا وَعَادُوا صُحْبَةَ الأَمِيرَةِ، فَفَرِحَ السُّلطَان فَرَحًا عَظِيمًا وَأَقَامَ حَفْلاً مُتَوَاصِلاً تَمَّ خِلاَلَهُ مُكَافَأَةُ الإِخْوَةِ السَّبْعَةِ

لِعَمَلِهِم، ، لَكِنَّ الصِّرَاعَ بَدَأَ بَيْنَهُم حَولَ مَن يَتَزَوَّجُ الأَمِيرَةَ...

وَعِنْدَمَا استُشِيرَت الأَمِيرَةُ "كَنْزَة" فِي الأَمْرِ اخْتَارَت الشَّابَّ الَّذِي فَكَّ قَيْدَهَا وَضَفَائِرَهَا مِنَ يَدِ الوَحْشِ... قَائِلَةً:

- جَمَالُ الرَّجُلِ فِي عَقْلِهِ وَلَيْسَ فِي جِسْمِهِ أَوْجَيْبِهِ..

لــونـجـــا

لــونـجـــا

لُونْجَـا الفَتَـاةُ الـسِّـحْرِيَّةُ القَادِمَـةُ مِـنْ أَعْمَـاقِ التَّـارِيخِ، الفَتَـاةُ ذَاتُ الجَمَـالِ الرَّائِـعِ الّـذِي بَلَغَـت شُهرَتُـهُ الآفَـاقَ، لاَيَتَزَوَّجُـهَا إلاَّ الـشَّابُّ الّـذِي يُدَافِعُ عَنْهَا وَيَدْفَعُ مَهْرَهَا الغَالِي.. وَهُو الـمُخَاطَرَةُ بِحيَـاتِهِ وَسَطَ الأَهْوَالِ.. !!

لُونجَا صَارَتْ حُلُمَ الـشَّبَابِ، ، يُـرِيدُ كُـلُّ وَاحِدٍ نيـلَ رِضَـاهَا لِيَتَزَوَّجَهَـا ، لَكِـنّ "مَزَارهَـا بَعِيـدٌ وَدُونَ ذَلِـكَ أَهْـوَالٌ" ، وَلاَ يُغَـامِرُ بِنَفْسِـهِ إلاَّ الـشُّجَاعُ الّـذِي لاَيُبَـالِي بِالـمَوْتِ مِنْ أَجلِهَا.

كَيْفَ بَدأَت قِصّتُهَا؟

فِـي قَلْعَـةٍ عَظِيمَـةٍ تُـضَاهِـي الـسَّمَـاءَ، ، يَعِيـشُ الـمَلِكُ وَزَوْجَتُـهُ وَابْنُهُـمَا الوَحِيـدُ الأَمِيرُ زَهَّـار الّـذِي خَرَجَ يَومًا فِي نُزْهَةٍ بَيْنَ الحُقُولِ.

كَانَـت عَجُـوزٌ تَقِـفُ قُـرْبَ بِئْـرٍ عَمِيقَـةٍ تَـمْلأُ جَرَّتَهَا ، لـمَّا اقْتَـرَبَ مِنْهَـا الأَمِيـرُ زَهَّـار عَلَـى جَوَادِهِ الأَدْهَـمِ، ، وَدَنَـا مِـنَ البِئْـرِ، ، ثُـمَّ ابْتَـسَمَ فِـي وَجْـهِ العَجُوزِ، قَائِلاً لَهَا :

- طِبْتِ، هَلاَّ فَسَحْتِ جَانِبًا مِنَ الـمَكَانِ حَتَّـى يَشْرَبَ الحِصَانُ...؟

نَظَرَتْ إِلَيْهِ مُقَطبَةَ الحَاجِبَيْنِ، ، وَقَالَتْ:

- أَحَـسِبْتَ أَنَّــكَ بِـشَجَاعَتِكَ وَجَمَـالِكَ الّــذِي تَتَـرَنّحُ بِهِ هُنَـا وَهُنَـاكَ عَلى جَوَادِكَ، تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ؟!

مَنْ تَكُون أَمَامَ لُونجَا الفَاتِنَةِ؟!.

تَعَجَّبَ الأَمِيرُ الشَّابُّ زَهَّارُ مُسْتَغْرِبًا أَمْرَهَا وَعَادَ مِن حَيْثُ أتَى حَائِرًا ، ، مَشْغُولَ البَالِ، ، شَارِدَ الفِكيرِ يَسْأَلُ وَلاَ يَجِدُ جَوَابًا لِسُؤَالِهِ، حيْرَتُهُ تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوم...

ولَمَّا نَفِدَ صَبْرُهُ أَرْسَلَ حُرَّاسَهُ لإِحْضَارِ الدَّاهِيَةِ، وَمَا هِيَ إلاَّ سَاعَاتٌ حَتَّى كَانَتِ العَجُوزُ أَمَامَهُ، ، وَرَوَتْ لَهُ حِكَايَةَ لُونْجَا ابْنَةِ العِمْلاَقِ المُتَوَحِّشِ التِي تَعِيشُ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ، حَيْثُ لاَ أَحَدَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا وَسَطَ مَتَاهَاتِ المَوْتِ وَالهَلاكِ...

رَكِبَ الأَمِيرُ حِصَانَهُ تَارِكًا البَلْدَةَ مُتَوَجِّهًا إِلَى النَّاحِيَةِ التِي أَشَارَت إِلَيْهَا العَجُوزُ، حَيْثُ تُوجَدُ

لُونْجَا الَّتِي كَانَ طَيْفُهَا رَفِيقَ سَبِيلِهِ، كَمِصْبَاحٍ يُضِيءُ دَرْبَهُ.

لَكِنَّهُ تَوَقَّفَ عَنِ السَّيرِ وَعَادَ قَاصِدًا بَيْتَ أَحَدِ الشُّيُوخِ الحُكَمَاءِ، إِنَّهُ رَجُلٌ يَعْرِفُ أَسْرَارَ الحَيَاةِ، كَثِيرُ التَّجَارِبِ، رَاجِحُ العَقْلِ، جَامِعُ الأَخْبَارِ لِذَلِكَ يُسَمَّى "الشَّيْخُ المُدَبِّرُ".

قَصَّ الأَمِيرُ حِكَايَتَهُ عَلَى الشَّيخِ الحَكِيمِ، فَقَالَ لَهُ فِي شَفَقَةٍ وَحُنُوٍّ:

- إِنَّ طَرِيقَكَ صَعْبٌ، سَيُوَاجِهُكَ المَوْتُ كُلَّ لَحْظَةٍ، ، كَمْ مِنْ فَارِسٍ قَبْلَكَ مَاتَ وَلَمْ يُدْرِك لُونْجَا أَنْصَحُكَ بِنِسْيَانِ هَذِهِ الفَتَاةِ وَالعَودَةِ إِلى أَبِيكَ لِتُسَاعِدهُ فِي شُؤُونِ الحُكْمِ..

وَقَفَ الأَمِيرُ زَهَّار قَائِلاً:

- لاَ بُدَّ أَنْ أَصِلَ إِلَيهَا مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ...

قَالَ لَهُ الشَّيْخُ:

- إِذَنْ عَلَيْكَ بِتَنْفِيذِ التَّوْجِيهَاتِ الَّتِي قَدَّمْتُهَا لَكَ واحْذَرِ الصَّخْرَةَ العَجِيبَةَ وَسَتَصِلُ إِلَى لُونْجَا...

وَعَادَ إِلَى قَصرِهِ حَائِرًا بَينَ التَّرَاجُعِ عَنْ فِكرتِهِ أوْ المُغَامَرةِ بِحَياتِهِ...

فِي الصَّبَاحِ البَاكِرِ اعْتَلَى الأَمِيرُ جَوَادَهُ الأَدْهَمَ، وَسَارَ فِي رِحْلَةٍ دَامَتْ أَيَّامًا وَلَيَالٍ، قَطَعَ خِلاَلَهَا المَسَافَاتِ الطَّوِيلَةِ وَرَأَى الأَهْوَالَ المُرْعِبَةَ، وَاجَهَهَا بِشَجَاعَةٍ، ،

رَأَى الأَمِيرُ زَهَّار قَلْعَةً ذَاتَ شَكْلٍ عَجِيبٍ مُرِيبٍ، وَشَاهَدَ الصَّخْرَةَ العَجِيبَةَ الَّتِي تُفْتَحُ وَتُغْلَقُ

بِـسُرْعَةٍ رَهِيبَــةٍ، وَفِــي الــسَّمَاءِ كَانَـتِ الوَطَـاوِيطُ تُوَطْوِطُ وَتَرقُصُ رَقْصَةَ الـمَوْتِ كَأَنَّهَا تُنْذِرُ الأَمِيرَ بِخُطُورَةِ الأَمْرِ، ، لَكِنَّهُ استَطَاعَ أَنْ يَنْفُذَ مِنَ الثَّغْـرَةِ بِخِفَّـةٍ وَيَنْجُـوَ مِـنْ فَـمِ الـصَّخْرَةِ كَالبَـرْقِ، فَدَخَـلَ بِأُعْجُوبَـةٍ خَارِقَةٍ... وَبَدَأَ الأَمِيـرُ يَصِيـحُ مُنَادِيًا :

- لُونْجَا، أَيَّتُهَا الحَسْنَاء هَيَّا اخْرُجِي، ،

أَطَلَّـتْ فتـاةٌ مِـنَ الأَعَالِـي كَالـشَّمْسِ الـسَّاطِعَةِ فِي ظُلْمَـةِ اللَّيْـلِ، ، قَائِلَـةً فِي دَلاَلٍ:

- مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الغَرِيب، ، وَكَيْـفَ دَخَلْتَ هُنَا ، ،

- أنَـا الأمِيـرُ زَهَّـار... لأَجْلِـكِ جِئْـتُ رَاغِبًـا فِـي الزَّوَاج... وَهـذَا قَلْبِـي فِي كفّـي أحْمِلـُهُ لَـكِ... جِئْتُ مِنْ جَزَائِرِ الأَحْلاَم...

سُرَّتْ لُونْجَا بِرُؤيَتِهِ وأُعجِبَتْ بِكَلاَمِهِ فَرَمَت بِضفَائِرِهَا إِلىَ الأَرْضِ لَيَستَعِينَ بِهَا عَلَى الصُّعُودِ... انْبَهَرَ الأَمِيرُ بِشَعْرِهَا الطَّويلِ، أَمْسَكَ بِهِ وَصَعدَ إِلَيهَا...

فِي المَسَاءِ عَادَ العِمْلاَقُ المُتَوَحِّشُ صاحبُ القلعةِ، تَحَسَّسَ المَكَانَ وَأَدْرَكَ أَنَّ غريبًا دَخَلَ القَلْعة، استَفسرَ عَنْ ذَلِك فَأَجَابَتْهُ:

- جَائِعٌ اقْتَرَبَ مِنَ الصَّخْرَةِ طَلَبًا لِلْقُوتِ كَيْ لاَيَمُوتَ، فَقَدَّمْتُ لَهُ الخُبْزَ وَاللَّبَنَ، ثُمَّ انْصَرَفَ لِحَالِهِ..

فِي الصَّبَاحِ البَاكِرِ خَرَجَتْ لُونْجَا مَعَ الأَمِيرِ زَهَّار عَلَى صَهْوَةِ جَوَادِهِ، استَيْقَظَ العِمْلاَقُ عَلَى صَوتِ غَلْقِ الصخرَةِ، فنَادَى لُونْجَا لكِنَّهَا لَمْ تُجِبه، ، نَظَرَ مِنَ النَّافِذَةِ فَرآهَا مَعَ الشَّابِ يَمْتَطِيانِ الجَوَادَ...

اسْـوَدَّتِ الـدُّنْيَا أَمَـامَ عَيْنَيْـهِ فهَـرَعَ رَاكِـضًا وَالغَضَبُ يَعْتَرِيـهِ، يَسْبِقُهُ صَوتُهُ الـمُزَمْجِـرُ وأَنْيَابُـهُ الطَّوِيلَةُ وَأَظَافِرُهُ الـمُرْعِبَةُ..

هَا هُوَ يَبْحَثُ عَنِ الطَّرِيقِ مِنَ الـمَخْرَجِ الضَّيِّقِ، ، كَأَنَّـهُ غَرِيـبٌ عَـنِ الـمَكَانِ، ، حَـاوَلَ الخُـرُوجَ فَأَطْبَقَـتْ عَلَيْـهِ الـصَّخْرَةُ لِـسُمْنَتِهِ وَاضْطِـرَابِهِ الشَّدِيدِ، ، ، صَرَخَ صَرْخَةً مُدَوِّيَةً ومات.

سَـارَ الجَـوَادُ بـالأمِير زَهَـار وَلُونْجَـا يَطْـوِي الـمَسَافَاتِ طَيًّا...

فِي طَرِيقِهِمَا الغَابِي عَلَى سَفْحِ الجَبَلِ شَاهَدَا نِسرَين يَقْتَتِلاَن، نِسْرٌ قَوِيّ يَفْتِكُ بِنِسْر ضَعِيف، تَحَرَّكَت فِي جَوَانِحِ الأَمِيرِ الـمُرُوءَةُ وَرُوحُ الإِقْدَامِ ضِدَّ الظُّـلْمِ، فَتَدَخَّلَ بَيْنَهُـمَا يُرِيدُ إِنْقَاذَ النِّـسْرِ

الضّعِيفِ، ، لَكِنَّ النِّسْرَ الكَبِيرَ انْتَهَزَ الفُرصَةَ وَاخْتَطَفَ الأَمِيرَ بِمَخَالِبِهِ وَحَلَّقَ بِهِ فِي الأَجْوَاءِ العَالِيةِ تَارِكًا وَرَاءَهُ لُونْجَا وَجَوَادَهُ، ،

صَارَتْ لُونْجَا وَحِيدَةً تَائِهَةً بَعْدَ غِيَّابِ زَهَّار تَبْكِي أَلَمًا مِن لَوْعَةِ الفِرَاقِ، انْتَظَرَتْ عَوْدَتَهُ أَيَّامًا وَلَمَّا يَئِسَت مِنْ ذَلكَ رَكِبَت الحِصَانَ لاَ تَدْرِي وِجْهَتَهَا، لَكنَّ الحِصَانَ عَرَفَ بِغَرِيزَتِهِ طَرِيقَ العَودَةِ فَسَارَ بِهَا نَحْوَ قَصْرِ المَلِكِ حَزِينَةً.

بَعْدَ أَيَّامٍ وَلَيَالٍ مِنَ السَّيْرِ كَسِيرَةَ الخَاطِرِ اقتَرَبَت مِن القَصْرِ فَتَرَكَتِ الحِصَانَ بَعِيدًا ودَخَلَتِ القَصرَ مُتَخَفِّيةً فِي ثِيَابٍ رَثَّةٍ، وطَلَبَت مِنَ الحُرَّاسِ مُسَاعَدَتَهَا عَلَى البَقَاءِ وَالعَمَلِ خَادِمَةً لَدَى المَلِكَةِ... فكَانَ لَهَا مَا أَرَادَت.

كُـلّ يَـوْمٍ تَجلِـسُ لُونْجـَا بِجَانِـبِ النَّافِـذَةِ، وتَتَذَكَّرُ الأَمِيرَ الفَارِسَ زَهّـار... تَتَسَاءَلُ:

- تُرَى إِلَى أَيْنَ طَارَ بِـهِ ذَلِكَ النِّسْرُ؟ وَهَـلْ مَـا زَالَ حَـيًّا أَمْ وَافَتْـهُ المَنِيَّـةُ؟ وَمَـرّةً عِنْـدَمَا كَانَـت لُونْجَا عِنْدَ النَّافِذَةِ حَائِرَةً مُتَسَائِلَةً فِي نَفْسِهَا...

لَمَحَـت عَلَـى حِيـنِ غِـرَّة نِـسْرًا يَجُـوبُ سَـمَاءَ القَصْرِ، إِنَّهُ النِّسرُ الصَّغِيرُ الَّذِي تَعَارَكَ مَعَ النِّسرِ الضَّخْمِ يُحَلِّقُ أَمَامَهَا فِي حَرَكَاتٍ تَعْبِيرِيَّةٍ كَأَنَّهُ يُرِيدُ تَبْلِيغَهَا رِسَالَةً...

قَفَزَت لُونْجَـا وَهِـي تُلَوِّحُ بِيَدِهَا يَـمِينًا وَيَسَارًا، وَالنِّـسْرُ يُوَاصِلُ حَرَكَاتِـهِ بِجَنَاحَيْـهِ الطَّـويلَيْن، خَرَجَـت لُونْجَـا مِـنَ القَـصْرِ وتَبِعَـتِ النِّـسْرَ فِـي اتِّجَاهِهِ، مُتَّخِذَةً إِيَّاهُ دَلِيلاً، وَعَلى رَأْسِ هَضَبَةٍ نَزَلَ

النِّــسْرُ وَأَخَــذَ يَنْظُــرُ صَــوْبَ شَــجَرَةٍ عَظِيــمَــةٍ، ، ، تَوَقَّفَت لُونْجَا وَالعَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْ جَبِينِهَا.

اقْتَــرَبَت مِن الشَّجَرَةِ الكَبِيرَةِ... فَسَمِعَت أَنِينًـا خَافِتًا، ، خَفَقَ قَلبُهَا، ، إِنَّهُ الأَمِيـرُ زَهَّار... أَسْرَعَت نَحْوَ الشَّجَرَةِ، ، ، لَكِنَّ النِّسْرَ العِمْلاقَ كَانَ أَسْرَعَ مِنْهَا، ، ، حَيْثُ حَمَلَ الأَمِيرَ وَحَلَّقَ بِه فِي السَّمَاءِ، ، فَصَارَت الفَتَاةُ الحَزِينَـةُ تُلَـوِّحُ بِيَدِهَـا مَـرَّةً أُخْرَى، صَارِخَةً فِي وَجْهِ الدُّنْيَا، ، سَمِعَهَا الأَمِيـرُ فَحَـاوَلَ أَنْ يُجِيبَـهَا بِأَنْفَاسٍ مُتَقَطِّعَةٍ، وَقَدْ أَنْهَكَهُ التَّعَب:

- عَلَيكِ بِإحضَارِ كَبْشٍ سَمِينٍ وَتَرْكِهِ عِنْدَ النَّهْرِ، عِنْدَمَا يَرَاهُ النِّسْرُ سَيَتْرُكُنِي...

قَامَت "لُونْجَا" بِتَنْفِيذِ وَصِيَّةِ الأَمِيـرِ الـمَأْسُورِ عِنْدَ النِّسْرِ الخَاطِفِ، فَتَحَقَّقَ مَاقَالَهُ، وَأَنْقَذَتهُ

مِن قَبْضَةِ الطَّائِرِ الجَارِحِ، لَكِنَّ المِسْكِينَ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا مَنَعَهُ من الحَرَكَةِ.

صَارَ زَهَّار طَرِيحَ الفِرَاشِ الَّذِي صَنَعَتْهُ لَهُ لونجا مِن أَوْرَاقِ الشَّجَرِ.

❖❖ ❖❖

مَرَّت الأَيَّام فَبَدَأَ الأَمِيرُ زَهَّار يَتَماثلُ لِلشِّفَاءِ، ، وَكَانَ عِلاَجُهُ الوَحِيد اِمْتِصَاصُ رَحِيقِ الأَشْجَارِ وَحَبِّ الزَّيْتُونِ المَمْزُوج بِنَظَرَاتِ العَطَف وَالحَنَان من لُونْجَا..

عَادَت الحَسْنَاءُ وَمَعَهَا الأَمِيرُ الشَّابُ زَهَّار الَّذِي دَخَلَ المَدِينَةَ مُتَنَكِّرًا حَتَّى لاَ يَعْرِفَهُ أَحَدٌ، وَفِي اليَومِ المُوَالِي لِعَوْدَتِهِمَا طَلَبَتِ الخَادِمَةُ لُونْجَا مُقَابَلَةَ

الـمَلِكِ، فَلَـمْ يَسْمَـح لَهَـا الحَـرَسُ بِذَلِـكَ، فَأَحْدَثَـت صَوْتًـا مُسْتَجْدِيا وَصَلَ مَسَامِعَ الـمَلِكِ، فَاسْتَفْسَرَ عَن الخَبَرِ، وَبَعْدَ حِينٍ أَذِنَ لَهَا بِالدُّخُولِ ثُمَّ سَأَلَهَا:

- مَا وَرَاءكِ أَيَّتُهَا الخَادِمَة؟!

- مَوْلَاي، مُنْذُ أَنْ وَطِئَتْ قَدَمَايَ هَذَا القَصْرَ لَمْ أَرَ البَسْمَةَ عَلَى شِفَاهِكُمْ.

اسْـتَغْرَبَ الــمَلِكُ قَوْلَهَــا لَكِنَّــهُ لَــمْ يُقَــاطِعْ كَلَامَهَا... اسْتَطْرَدَت قَائِلَةً:

- سَـأَرْفَعُ بَعْـدَ قَلِيـلٍ سِـتَارَ الحُـزْنِ عَـن هَــذَا القَـصْرِ وأَمْـسَحُ الـدُّمُـوعَ مِـنْ نَوَافِـذِهِ، واسـتَأْذَنَت لِلخُرُوجِ فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا عَلَى طَلَبِهَا...

خَرَجَـت أَمَـامَ البَـابِ وَطَلَبَـتْ مِـنَ الـضَّيفِ الدُّخُولَ عَلَى الـمَلِكِ وَزَوْجَتِهِ...

يَا للمُفَاجَـأَةِ السَعِيدةِ! الـمَلِكُ وَزَوْجَتُـهُ يُشَاهِـدَانِ ابْنَهُمَا الحَبِيب الَّذِي يَئِسُوا مِن عَودَتِـهِ، ، وَفِـي غَمْرَةِ فَرْحَتِهِم انْصَرَفت "لُونْجَـا" وأصلَحَـتْ مَظْهَـرهَا، ثُّـم عَـادَتْ إِلـى المَجْلِسِ الـمَلَكِـي... انبَهَرَ الجَمِيعُ بِالعَودَةِ، وَبَيَنَمَـا الفَرحَةُ تَمْلأُ قُلوبَ العَائِلَةِ.

قَالَ زَهّار:

- إنَّهَـا لُونجَـا عَرُوسِـي الـمُخْتَارَة، ، الّتِـي غِبْـتُ لأجْلِهَا، ، فَمَا تَقُولُونَ؟

وَبَعْـدَ التَّـشَاوُرِ وَافقَـا عَلَـى زَوَاجِهَـا وَأُقِيمَـتِ الأَفْـرَاحُ فِـي البَلْـدَةِ احْتِفَـاءً بالـمُنَاسَبَـةِ، فَـسَعِدَ الجَمِيعُ بِذَلِكَ.

وَعَاشَ القَصْرُ الأَفْرَاحَ وَاللَّيَالِي الـمِلاَح مُحْتَضِنًا "الأَمِيرَ وَلُونْجَـا" فِي سَعَـادَةٍ وَهَنَـاءٍ...

الأميرة السجينة

عشبة خضار

الأميرة السجينة

فِي سَالِفِ العَصْرِ والأَوَان كَانَت فَتَاةٌ جَمِيلَةٌ فِي عُمـر الزهُـور... لَهَـا شَعْـرٌ ذَهَبِـيٌّ.. طَويـلٌ.. اسْمُـهَا "عُشْبَـةُ خَضَّار".

وَالدُهَـا سُلطَانٌ ذُو لِحْيَـةٍ بَيْضَـاءَ وَشَارِبٍ طَوِيلٍ، يَلبِسُ بُرنُوسًـا وَحِـذَاءً جِلْدِيًا مَـوْسُـومًا بِرُسُـومَـاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، يَضَـعُ فِي رَقَبَتِـهِ قِلاَدَةً وَفِي إصْبَعِهِ خَاتـمًا يَلْمَعَانِ كالبَرْقِ الخَاطِفِ كُلَّمَا قَبَّلَتْهُمَا الشَّمْسُ بِأَشِعَّتِهَا فَيَزْدَادُ المَكَانُ ضِيَاءً..

كَانَت وَحِيدَةُ وَالِدِهَا بَعْدَ وَفَاةِ أمِّهَا.. فِي جَزِيرَةٍ

خَـضْرَاءَ يَـسْكُنَانِ قَـصْراً تَحُـومُ حَولَـهُ النَّـوَارِسُ البَيَضَاءُ وَتَتَسَلَّلُ عَبْـرَ نَوَافِذِهِ الكَبِيرَةِ أَشِعَّةُ شَمْسِ الـصَّبَاحِ الـضَّاحِكَةِ فَيَـتَلأْلأُ شَـعْرُ عُـشْبَـةِ خَـضَّار بِتَمَوُّجَاتِ قَوْسِ قُزَحِ الذَّهَبِيَّةِ.

يَجلِسُ وَالدَهَا تَحْتَ شَجَرَةٍ وَافِرَةِ الظِلاَلِ يُفَكِّرُ فِي شُؤُونِ البِلاَد.

فِي صَبَاحِ يَومٍ جَمِيلٍ طَلَبَتْ عُشْبَةُ خَضَّار مِنْ وَالِدِهَا السُلطَانِ السَّماحَ لَهَا بِمُرَافَقَةِ صَدِيقَاتِهَا إِلى الغَابَةِ المُجاورةِ للنُّزهَة وقَطْفِ الأَزْهَارِ.. لَكِنَّ الوَالِدَ رَفَضَ خَوْفاً عَلَيْهَا ، وَبَعْدَ إِلْحَاحٍ مِن صَغِيرَتِهِ وَافَقَ شَرْطَ العَودَةِ قبلَ الغُرُوبِ.

فَرِحَتْ عُشْبَة خَضَّار وَعَانَقَتْ وَالِدَهَا السُلطَان ثُمَّ وَدَّعَتْهُ.

ذَهَبَـتْ مَـعَ الـصَّغِيرَاتِ يُنْـشِدْنَ أَغَـانِي الفَـرَحِ وَالـمَرَحِ، فِي الغَابَةِ بَدَأْنَ يَلْعَبْنَ لُعْبَةَ الغُمَيْضَةِ.

وَفِي غَمْرَةِ اللَّعِبِ وَالـمَرَحِ انْشَغَلَتْ عُشْبَةُ خَضَّار بِفَكِّ ضَفَـائِرِ شَعْـرِهَا الطَّوِيلِ، الَّذِي اشْـتَبَكَ بِنَبَـاتِ الحَسكِ بَيْنَ الأَشْجَـار، فَانْعَـزَلَـتْ الطِّفْلَـة وَاخْتَفَـتْ عَنْ أَنْظَـارِ صَدِيقَاتِهَا اللاَّئِي بَحَثْنَ عَنْهَا كَثِيرًا دُونَ جَدْوَى فَعُـدْنَ إِلَى القَرْيَةِ باكِياتٍ..

بَقِيَتْ عُشْبَةُ خَضَّار وَحْدَهَا فِي الغَابَةِ، هَاهِـي تُنَـادِي عَلَيْهِـنَّ وَعَلَـى وَالِـدِهَا وَقَـدْ تَاهَـتْ بَـينَ ظِـلاَلِ الأَشْـجَارِ الـكَثِيفَـةِ وأَرْعَبَهَـا صَـوْتُ البُـومِ وَنَقِيـقُ الضَّفَادِعِ.

جَلَسَت قُرْبَ بِرْكَـةِ مَاءٍ تَبْكِي فَسَمِعَتْهَا الأَرْنَبُ واقْتَربَـت مِنْهَـا وَسَـأَلَتْهَا عَـنْ سَـبَبِ بُكَائِهَـا ،

ثُمَّ سَاعَدَتْهَا فِي تَخْلِيصِ شَعْرِهَا.

مَشَتْ "عُشْبَةُ خَضَّار" فِي الغَابَةِ المُوحِشَةِ وَهِي تَلْتَفِتُ يَمِينًا وَيَسَارًا لَعَلَّهَا تَهْتَدِي إِلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، فَإِذَا بِهَا تَلْمَحُ ضَوءً خَافِتًا يَنْبَعِثُ مِن بَعِيدٍ فَهَرَعَتْ نَحْوَهُ وَالجُوعُ وَالعَطَشُ قَدْ أَخَذَا مِنْهَا مَأْخَذَهُمَا وَالتَّعَبُ قَدْ أَرْهَقَهَا.

وَصَلَتْ مَكَانَ الضَوءِ فَإِذَا بِهِ كُوخٌ قديمٌ، وَلَمَّا أطَلّتِ الطِّفْلَة دَاخِلَهُ رأَتْ عَجَبًا، امْرَأَةٌ عِمْلاَقَةٌ ذَاتُ شَعر كَثِيف، تَطْحَنُ القَمْحَ وَالشَّعِيرَ، حَاولت الهُرُوبَ لكِنَّ المَرْأَةَ العِمْلاَقَةَ شَاهَدَتْهَا فَلَحِقَتْهَا وَأمْسَكَتْها ثُمّ أَدْخَلَتْهَا الكُوخَ وَأَغْلَقَتِ البَابَ.

بَعْدَ حِينٍ حَمَلَتِ المَرْأَةُ العِمْلاَقةُ الأَمِيرَةَ عُشْبَةَ خَضّار بَيْنَ يَدَيْهَا وَأرْضَعَتها حَتّى زَالَ جُوعُهَا

وَعَطَشُهَا فنَامَتْ.

وَعِنْدَمَـا اسْتَيْقَـظَتْ انْدَهَـشَت لِحَالِـهَا وَحَـاوَلَـت الفِـرَارَ مَـرّةً ثَانِيَـةً، لَـكِـنَّ العِمْـلاَقَـةَ أَمـسَـكَتْ بِـهَا وَقَالَتْ لَهَا:

- لَوْ لَمْ تَرْضَعِي ثَـدْي لَتَرَكْتُكِ خَـارِجَ الكُـوخِ لِلذِّئَـابِ وَالأُسُـودِ، تَـجْعَـلُ مِـنْ لَحْمِـكِ مُـضْغَةً وَمِـنْ دَمِكِ شَرْبَةً، أنْتِ هُنَا سَجِينَةٌ فَلاَ تُحَاولي الهَرَبَ مَرّةً أُخْرَى.

وَبَعْـدَ أَنْ عَـادَ أَبْنَـاءُ الـمَرْأةِ العِمْلاقَـةِ مَـاكُوس وَشَقِيقِهُ الصَغِيرِ مَانُوس انْدَهَـشَا لِوجُـودِ فَتَـاةٍ غَرِيبَـةٍ مَعَ أمِّهِمَا انْبَهَرَا لِطُولِ شَعْـرِهَا الذَّهَبِي الذِي يَنْسَدِلُ عَلَى جِسْمِهَا الصَّغِيرِ..

بَقِيَـتْ الأمِـيرَةُ فِـي سِـجْنهَا الـصَغِيرِ شِـبْهُ مُقَيّـدَةٍ

وَبَكَتْ كَثِيرا لأنّها لَمْ تَستَطِع العَيْشَ بَعِيدًا عَنْ أَهْلِهَا ، ، فَكّرَت فِي الهَرَب فَخَافَتْ أَنْ تَضِلَّ الطَّرِيقَ وَبَقِيَت حَائِرَةً تَبْحَثُ عَنْ مَخْرَجٍ مِنْ ذَاكَ السِّجنِ المَفْتُوحِ.

حَزِنَ السُّلطَانُ كَثِيرًا لِغِيَابِ ابْنَتِهِ الوَحِيدَة وَزَادَ حُزْنُهُ بَعْدَمَا فَشِلَ جُنْدُهُ فِي العُثُورِ علَى طِفلَتِهِ المَفْقُودَةِ، وَعَادُوا خَائِبِينَ لا يَحْمِلُونَ مَعَهُمْ سِوَى بَعْض شَعْرِهَا الذِي عَثَرُوا عَلَيهِ فِي الغَابَةِ.

وَبَعْدَ تَفكِيرٍ طَوِيلٍ، خَرَجَ إِلى شَعْبِهِ يَطْلُبُ مِنْهُ المُسَاعَدَةَ فِي البَحْثِ عَنْ ابْنَتِهِ، وَأَخْرَجَ مِنْ جَيبِهِ الشُعَيرَاتِ التِي أَحْضَرَهَا الجُنْدُ، وَقَدَّمَ لِكُلِّ قَبِيلَةٍ شَعْرَةً، ثُمَّ قَالَ:

- مَنْ يُعِيدُ لِي ابْنَتِي سَيَكُونُ شَرِيكًا لَهَا

فِي الـمُلكِ بَعْدَ وَفَاتِي أَوْ زَوْجًا لَهَا.

وشَـرَعَ الـشَّبَابُ فِـي عَمَلِيّـةِ البَحْـثِ لَـيْلاً وَنَهَـارًا ، لَـكِنّهُم لَمْ يَفلَحُوا فِي العُثُورِ عَلَيْهَا.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ مَـرَّ أَحَدُ الرُّعَاةِ بِقَطِيعِـهِ أَمَـامَ الـكُوخِ فَوَجَـدَ عَلَـى بَابِـهِ "عُشْبَـةُ خَضَّـار" ، لَـكِنَّـهُ لَـمْ يَعْـرِفْهَـا ، ابْتَـسَمَتْ لَـهُ وَطَلَبَـتْ مِنْـهُ إِحْـضَارَ مُهْـرٍ لِيَتَدَرَّبَ عَلَى رُكُوبِهِ الصَّغِيرُ مانُوس ابْنُ العِمْلاَقَةِ.

فَرَدَّ قَائِـلاً:

- مُنْـذُ أَنْ غَابَـت "عُـشْبَةُ خَـضَّـار" لَـمْ تَهْطُـلِ الأَمْطَـار، وَمَا أَنْبَتَتْ الأَرْضُ أَخْضَـر وَلَـمْ تَلِد الفَرَسُ مُهْرًا كَـيْ أَمْنَحَهُ أَخِيكِ الصَّغِيرَ.

حِينَهَـا تَذَكَّـرَت فَبَكَـت وأَبْكَـتْ مَعَـهَا السَّمَـاءَ فَسَقَطَت الأَمْطَارُ، وَضَحِـكَـتْ فَأَشْـرَقَتِ الشَّمسُ...

فَعَرَفَ الرَّاعِـي أَنَّهَا عُشْبَةُ خَضَار..وَرَجَعَ مَذْهُولاً إِلَى القَرْيَة وَهُـو غَيْرُ مُصَدِّقٍ مَـارَأَتْ عَيْنَـاهُ وَكَتَـمَ ذَلِكَ فِي سِرِّهِ..

بَعْدَ أَيَّامٍ عَاوَدَ زِيَّارَتَهَا فِي نَفْسِ المَكَانِ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ تِلكَ الفَتَـاةَ هـي "عُشْبَةُ خَضَّار" ابْنَـةُ الـمَلِكِ، وَجَدَهَا تُلاَعِبُ الصَّغِيرَ، فَطَلَبَتْ مِنْهُ مَرَّةً ثَانِيَةً إِحْضَارَ مُهْرٍ لأَخِيهَا الصَّغِيرِ، رَدَّ عَلَيهَا هَذِهِ المَرَّة قَائِلاً:

- مِـنْ يَـومِ غِيّـابِ "عُـشْبَة خَـضَّار" مَـا صَـبَّتْ أمْطَارْ مَا وَلْدَت الفَرَسُ أَمْهَارْ وَمَا رَبَّتْ النَّـاقَةُ أحْوَارْ..

وَضَحِكَتْ.. فَأَدْرَكَ أَنَّهَا "عُشْبَة خَضَّار" ابْنَةُ المَلِكِ.

تَسَرَّبَ الخَبَرُ فِي الـمَدِينَةِ، وَأَصْبَحَ كُلُّ وَاحِدٍ يَدَّعِي أَنَّهُ يَعْرِفُ مَكَانَ عُشْبَة خَضَّار، وَأَنَّهُ سَيَنَالُ جَائِزَةَ الـمَلِكِ، إِلَى أَنْ عَلِمَ صَاحِبُ القَصْرِ بالحَقِيقَةِ

مِنْ صَاحِبِهَا ، فَتَوَجَّهَ إِلَى الغَابَةِ الخَضْرَاءِ لِيتَأَكَّدَ مِمَّا قِيلَ لَهُ.. هَا قَدْ وَصَلَ وَالحَرَسُ يَتْبَعُهُ، انْدَهَشَ وَهُو يَرَاهَا إِنَّهَا ابْنَتُهُ الّتِي ضَاعَتْ فِي الغَابَةِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ، فَرِحَت عُشْبَةُ خَضّار كَثِيرًا بِلِقَاءِ أَبِيهَا الّذِي احْتَضَنَهَا بِشَوْقٍ وَلَهْفَةٍ، وقبْلَ مُرَافَقَتِهِ قَالَتْ لَهُ:

- هَذَا الطِّفْلُ الصَّغِيرُ، أُمُّهُ غَائِبَةٌ، لَنْ أَتْرُكَهُ وَحِيدًا ، فَأَجَابَهَا وَالِدُهَا :

- سَنَحْمِلُهُ مَعَنَا.

كَانَ مُمْتَطِيًّا جَوَادَهُ وَخَلفَهُ ابْنَتُهُ وَالصَّغِيرُ مَانُوس الذِي كَانَ يَتَسَاءَلُ:

- إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ بِنَا هَذَا الرَّجُلُ؟

فِي الطَّرِيقِ تَوَقَّفَ المَلِكُ عَنْ السَّيرِ قَصْدَ

الاسْتِرَاحَةِ قَلِيلاً، فانْسَحَبَ الطِّفْلُ مَانُوس واخْتَفَى بَيْنَ الأشْجَارِ دُونَ أنْ يَنْتَبِهَ لِغِيَابِهِ أحَدٌ...

وَلَمَّا أَحَسَّتْ عُشْبَةُ خَضَّار بِغِيابِهِ أَخْبَرَتْ وَالِدَهَا فَتَعَجَّبَ وَأَرْسَلَ مَنْ يَبْحَثُون عَنْهُ، فَلَمْ يَجِدُوهُ...

عَادَتِ المَرْأَةُ العِملاَقَةُ إِلَى الكُوخِ فَلَمْ تَجِد ابْنَهَا وعُشْبَةَ خَضَّار، بَحَثَتْ عَنْهُمَا كَثِيرًا حَتَّى يَئِسَتْ مِنْ العُثُورِ عَلَيهِمَا فَحَزِنَتْ لِفُقْدَان رَامُوس وَظَنَّتْ أَنَّ عُشْبَةَ خَضَّار اخْتَطَفَتْهُ وَهَرَبَتْ بِهِ بَعِيدًا فَقَرَّرَت الانْتِقَامَ مِنْهَا... وَوَاصَلَتِ البَحْثَ عَنْهُمَا فَبَدَأتْ تَتَمَوَّهُ كُلَّ مَرَّةٍ فِي شَكْلِ حَيَوانٍ.

فِي إِحْدَى المَرَّاتِ تَمَثَّلَتْ فِي صُورَةِ نَاقَةٍ واتَّجَهَتْ صَوْبَ القَصْرِ النَّوْرَسِي... تَبْحَثُ عَن ابنِهَا، وتَنْتَظِرُ عُشْبَةَ خَضَّار لِتَحمِلَهَا قَصْدَ الفِرَارِ بِهَا بَعِيداً...

أَقَبْلَت عُشْبَةُ خَضَّار نَحْوَ النَّاقَةِ السِحْرِيَّةِ وَبَيْنَمَا هِـي تَـسْتَعِدُّ لِرُكُوبِهَـا إِذْ هَبَّـتْ عَاصِفَـةٌ شَدِيـدَةٌ تَحَوَّلَـتْ إِلَـى زَوْبَعَـةٍ رَمْلِيَّـةٍ أَغْبـرَت الجَـوَّ وَأَظْلَمـت المَكَان...

فَانْعَـدَمَـت الرُؤْيَـةُ، وَبَعْـدَ فَتْـرَةٍ قَـصِيـرَةٍ هَـدأَتِ العَاصِـفَةُ وَانْقَـشَعَ الغُبَـارُ وَصَـفَا الجَـوُّ فَكَانَـت الدَّهْشَةُ الكبرَى!!.

رَأَى الجَمِيـعُ شَبَحـًا قَادِمـًا مِـن بَعِيـدٍ... هَاهُـو يَقْتَرِبُ شَيْئًا فَشَيْئًا، لَقَدْ بَدأَتْ تَظْهَرُ مَلاَمِحُهُ...

إِنَّهُ وَلَدُ الـمَرْأَةِ العِمْلاَقَةِ الصَّغِيرِ... كَانَ تَائِهًا...

عَادَ الابْنُ الضَّالُ وَقَدْ صَـارَ شَـابًّا يَافِعًا وَعَادَتِ العِمْلاَقَةُ إِلَـى حَالَتِـهَا الطَّبِيعِيَّـةِ بَعْـدَ أَنْ كَانَـتْ فِـي صُورَةِ نَاقَـةٍ.

الْتَقَـى الابْـنُ بِأُمِّـهِ، ، حَمَلَتْـهُ عَلَـى ظَهْرِهَـا ثُـمَّ نَظَـرَا صَـوْبَ الجَمِيـعِ وَانْـصَرَفَا مُـسْرِعَيْنِ تُجَـاهَ الغَابَـةِ..

لَـمْ تُـصَدِّقْ عُـشْبَة خَـضَّار مَـا رَأَتْ مِـن هَـوْلِ الـمُفَاجَأَةِ... وَبَعْدَ أَنْ اسْتَعَـادَتْ وَعْيَـهَا أَسْرَعَت نَحْوَ القَصْرِ الـمَلَكِي.

بَعْـدَ أَيَّامٍ قَـدِمَ الرَّاعِـي إِلى القَصْر يُرِيدُ مُقَابَلَـةَ السُّلطَان لِيَطْلُبَ مِنْـهُ تَنْفِيذَ وَعْدِهِ.

- هَـل يَفِـي الـسُّلطَانُ بِوَعْـدِهِ وَيَجْعَـلَ الرَّاعِـي شَرِيكًـا فِي الثَّرْوَةِ أَوْ زَوْجًـا لِلأَمِيـرَةِ عُشْبَـةَ خَضَّار؟!

الفرسان السبعة والأميرات

الفرسان السبعة والأميرات

فِـي قَـدِيمِ الزَّمَـانِ وَسَـالِفِ العَـصرِ وَ الأَوَانِ... كَانَ أَحَدُ الأُمَرَاءِ الشَّبَابِ يُسَمَّى سِيسَان يَعِيشُ مَعَ شَقِيقَاتِهِ الأَمِيرَاتِ السَّبْعِ فِـي بَلْدَةٍ هَادِئَةٍ جَمِيلَـةٍ بِحَدَائِقِهَا وَبَسَاتِينِهَا اليَانِعَةِ ونَافُورَاتِ مِيَاهِهَا المُتَدَفِّقَةِ.

ذَاتَ يَومٍ سَافَرَ الأَمِيرُ سِيسَان لِمُرَاقَبَةِ شُؤُونِ البِلاَدِ وَالعِبَادِ، حَيْثُ يَتَفَقَّدُ سَيرَ النِّظَامِ فِي الأَقَالِيمِ التَّابِعَةِ لَهُ.

بَعْدَ أَيَّامٍ عَادَ الأَمِيرُ إِلَى قَصْرِهِ فعَلِمَ مِنَ الحَرَسِ بأنّ شَقِيقَاتِهِ قدْ اخْتُطِفْنَ مِنْ قِبَلِ أَشْخَاصٍ غُرَبَاء...

غَضِبَ الأَمِيرُ غَضَبًا شَدِيدًا وَأَعْلَنَ الحِدَادَ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ المَمْلَكَةِ.

بَدأَت الحيرَةُ تَتَمَلَّكُهُ واليَأسُ يَكَادُ يُدَمِّرُهُ وَهُوَ يُحَدِّقُ فِي سَاحَةِ القَصْرِ الحَزِينَةِ، ، ثُمَّ حَوَّلَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَلَمَحَ فِي الأَجْوَاءِ حَمَامَتَينِ بَدِيعَتَينِ، تَحُومَانِ بَيْنَ الحَدَائِقِ وَالبَسَاتِينِ، بَعْدَ حِينٍ اقْتَرَبَت مِنْهُ وَاحِدَةٌ، وَأَلقَتْ أَمَامَهُ رِسَالَةً وَطَارَت.. قَرأَ الرِّسَالَةَ:

- أَيُّهَا الحَائِرُ!.. لاَ تَحْزَن؟... إنْ أَرَدتَ اللّحَاقَ

بِنَا عَلَيْكَ اتِّبَاعنَا إِلَى القَصْرِ الجَمِيلِ وَثَمَّةَ يَكُونُ مَا تُرِيدُ...

أَسْرَعَ الأَمِيرُ سِيسَان إِلَى مَرْبَطِ الجِيَّادِ وَسَارَ تُجَاهَ البَادِيَةِ.

فِي طَرِيقِهِ الطَّوِيلِ صَادَفَ الأَمِيرُ صَخْرَةً فِي شَكْلٍ هَنْدَسِيٍّ تُشْبِهُ رَأْسَ انسَانٍ، فَزِعَ الأَمِيرُ لِذَلِكَ المَنْظَرِ الرَّهِيبِ، رَفَعَ رَأسَهُ فَرأَى قَلعَةً ضَخْمَةً، ، وفِي غَمْرَةِ مَخَاوِفِهِ المَمْزُوجَةِ بِأَمَلِهِ الكَبِيرِ فِي العُثُورِ عَلَى الحَمَامَتَينِ قَرَّرَ دُخُولَ المَبْنَى.

طَرقَ الأَمِيرُ البَابَ كَثِيرًا وَلَمَّا فُتِحَ لَهُ ظَهَرَ الحُرَّاسُ فِي زِيِّهِم المُزَرْكَشِ، أَدْخَلُوهُ وَفَرَسَهُ.

بَعْــدَ فَتْــرَةٍ أقْبَــلَ الفُرْسَــانُ أَصْحَــابَ القَلعَــةِ فَتَعَرَّفُـوا عَلَى الأَمِيرِ وَفَرِحُوا بِوُجُـودِهِ فِـي قَلْعَتِهِم، وَأَقَـامُوا لَـهُ احْتِفَـالا، ثُـمَّ قَـصَّ عَليهِـم حِكَايَـةَ شَقِيقَاتِـهِ الـمُخْتَطَفَـاتِ، وَوَعَدَهُـم بِالزَّوَاجِ مِنهُـنَّ إِنْ سَاعَدُوهُ فِي العُثُورِ عَلَيهِنَّ... فَوَافَقُوا عَلَى فِكْرَتِـهِ، كَمَــا طَلَــبَ مِــنْهُم الـمُـسَاعَدَةَ فِــي العُثُــورِ عَلَــى الحَمَامَتَينِ.

تَوَجَّهَ الفُرسَانُ السَّبْعَةُ نَحْوَ أَبِيهِمْ الـمُنْهَمِكِ فِـي أَكْلِ لَحْمِ القُنْفُذِ... وَسَأَلُـوهُ:

- يَـا أَبَانَـا العَزِيـز.. أَيُّـهَا الفَـارِسُ الجَبَّـار.. يَاكَبِيـرَ القَـومِ... كَيَـف نَعْرِفُ مَكَانَ الحَمَامَتَينِ؟

نظَرَ الأَبُ إِلَى السَّمَاءِ طَوِيلاً ثُمَّ قَالَ:

- العملاَقَانِ (طَامُوسْ وَرَامُوس) يَسْكُنَانِ قَصْرًا عَلَى قِمَّةِ الجَبَلِ الأَخْضَرِ يَحْرُسَانِ وَيَخْدُمَانِ فَتَاتَينِ جَمِيلَتَينِ فِي مُقْتَبَلِ العُمْرِ تَعِيشَانِ مَعًا.. إِنَّهُمَا صَاحِبَتَا الحَمَامَتَينِ.

حِينَمَا عَلِمَ الأَمِيرُ سِيسَان مِنَ الفُرْسَانِ أَنَّ قِمَّةَ الجَبَلِ الأَخْضَرِ تُخْفِي أَسْرَارَ الحَمَامَتَينِ سَارَعَ إِلَى جَوَادِهِ، وَاتَّجَهَ صَوْبَ القِمَّةِ حَيثُ القَصْرُ المنِيفُ وَالعِمْلاَقَينِ... بَيْنَمَا تَفَرَّقَ الفُرسَانُ السَّبْعَةُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ يبْحَثُون عَن شَقِيقَاته.

وَصَلَ الأَمِيرُ القَصْرَ فَاستَقبَلَتْهُ الحَمَامَتَانِ فِي أجْوَاءِ القَصْرِ، حَيْثُ وَجَدَ دَاخِلَهُ فَتَاتَينِ يَحْرُسُهُمَا

عِمْلاَقَــانِ فَأُعْجِــبَ الأمِــيرُ سِيــسَان بِالفَتَــاتَينِ وَتَزَوَّجَهُمَا ، وَعَادَ بِهِمَا إِلى قَصْرِهِ وَمَعَهُم الحَارِسَانِ طَامُوس وَرَامُوس... لَكنَّه تَرَكَ قَصرَهُ ثَانِيَّةً وَخَرَجَ يَبْحَثُ مِن جَدِيد عَنْ شَقِيقَاتِهِ...

❖❖ ❖❖

كَانَ لِلأَمِيرِ سِيسَان عَمٌّ شَدِيدُ البَأْسِ، غَلِيظُ القَلْبِ، مَلَكَتْهُ الغَيرَةُ حِينَمَا عَلِمَ بِزَوَاجِ ابْنِ أَخِيهِ وَرَأَى العَرُوسَينِ، فَكَّرَ بِخُبْثٍ وَشَرَعَ فِي تَدْبِيرِ مَكِيدَةٍ للتَّخَلُّصِ مِنْ ابْنِ أَخِيهِ الأَمِيرِ الشَّاب قَصْدَ الانْفِرَاد بِالمُلْكِ...

أَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلَيْنِ مِنْ رِجَالِهِ الغَشُومِينَ... رَافَقَهُمَا الأَمِيرُ فِي رِحْلَتِهِمَا وَهُوَ لاَيَدْرِي مَا يُخْفِيانِهِ

فِي نَفْسَيْهِمَا مِنْ مَكْرٍ وَحِيلَةٍ... وَلَمْ يَعلَمْ بالمَكِيدَةِ التِي تَنْتَظِرُهُ...

عَطشَ الأَمِيرُ فِي رِحْلَتِهِ الصَّحْرَاوِيَّةِ فَلَمْ يَجِدْ مَاءً فِي جِرَابِهِ يُطْفِئُ بِهِ لَهِيبَ الظَّمَإِ، وَلَمَّا طَلَبَ مِنْ رَفِيقَيْهِ جُرْعَةَ مَاءٍ امْتَنَعَا... فَاشْتَدَّ بِهِ العَطَشُ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى الهَلاَكِ.. وَبَعْدَ الإِلْحَاحِ وَالتَّهْدِيدِ اسْتَجَابَا لِطَلَبِهِ لَكِن بِشَرْطٍ غَرِيبٍ: أَن يَفقَآ عَينَيهِ..!!

غَدَرَ الرَّجُلاَنِ بِالأَمِيرِ وَ رَمَيَا بِهِ فِي غَيَاهِبِ الصَّحْرَاءِ بَعْدَمَا فَقَآ عَيْنَيْهِ مُقَابِلَ جُرْعَتَينِ مِنَ المَاءِ...

هَاهُو تَحْتَ لَهِيبِ الشَّمْسِ المُحْرِقَةِ كَفِيفَ البَصَرِ، يَتَلَمَّسُ الطَّرِيقَ فَلاَ يَعْرِفُ لَهُ دَرْبًا، وَيَبْحَثُ

عَن قَطْرَةِ مَاءٍ فَيَسِيلُ عَرَقُهُ قَطَرَاتٍ مِمَّا زَادَهُ عَطَشًا وَأَلَمًا..

رَكِبَ الأَمِيرُ الكَفِيفُ سِيسَان حِصَانَهُ بِصُعُوبَةٍ، وَبَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ مِن السَيْر توَقّفَ الحِصَانُ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فَنَزَل وَجَلَسَ تَحْتهاَ وَكَانَ فِي حَالَةٍ سَيِّئَةٍ، مِن الجُوع والتَّعبَ والألَمِ.

كَانَ عَلَى أَغْصَانِ شَجَرَةِ الزَّيْتُونِ عُشٌّ فِيهِ صِغَارُ طَائرِ اللَّقْلَقِ يَرْقُبُونَ هَذَا الإِنْسَانَ مُشْفِقِينَ عَلَيْهِ، متَأَلِّمِينَ لِحَالِهِ، وَلَمَّا عَادَ أَبُوهُمْ دَنَا مِنْهُمْ كَعَادَتِهِ لِيَحْضُنَهُم، قَالُوا لَهُ:

- لَن نَقْتَرِبَ مِنْكَ حَتَّى تُسَاعِدَ هَذَا المَخلُوقَ البَائِسَ، انْظُر إِلَى الأَرْضِ.

تَأَثَّرَ الطَّائِرُ لِقَوْلِ صِغَارِهِ فَلَبَّى طَلَبَهُم فِي الحِينِ وَقَالَ:

- أَيُّهَا الانْسَانُ، ضَعْ يَدَكَ يَمِينًا تَجِد حَجَرَةً حَاوِل أَنْ تَقْلِبَهَا عَلَى ظَهْرِهَا.

- انْدَهَشَ الأَمِيرُ لِهَذَا الصَّوْتِ العَجِيبِ ومَدَّ يَدَهُ فِي رَعْشَةٍ وَوَهَنٍ، نَزَعَ الحَجَرَ مِنْ مَكَانِهِ، فَتَنَزَّى المَاءُ يُنْبُوعًا صَافِيًا، فَرَوَى الأَمِيرُ عَطَشَهُ بَعْدَمَا عَبَّ المَاءَ عَبًّا... وَلِعِلاَجِ عَيْنَيْهِ فَكَّرَ الطَّائِرُ فِي كَيْفِيَّةِ مُسَاعَدَتِهِ عَلَى اسْتِرْجَاعِ نُورِ البَصَرِ، فَأَشَارَ نَحْوَ أَورَاقِ الشَّجَرَةِ وَهُوَ يَقُولُ لِلأَمِيرِ:

- انْهَضْ وَخُذْ مِنْ أَوْرَاقِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، امْضَغْهَا بَأَضْرَاسِكَ حَتَّى تَصِيرَ كَالمُضْغَةِ

ثُمَّ ضَعْهَا عَلَى عَيْنَيْكَ وَسَتُشْفَى.

أَسْدَلَ اللَّيْلُ سِتَارَهُ وَسَطَعَتِ النُّجُومُ البَرَّاقَـةُ فِـي ظُلمَةٍ خَيَّمَت عَلَى نَفْسِيَّةِ الأَمِيرِ، وَكَانَت البِشَارَةُ بِوُجُودِ هَـذَا الطَّائِرِ الذِي كَانَ وَصِغَارُهُ خَيْـرَ أَنِيسٍ فِي ظُلْمَةِ العَمَى..

وَبِفَضْلِ هَــذَا الطَّـائِرِ وَصِغَـارِهِ اسْتَعَادَ الأَمِـيرُ سِيسَان بَصَرَهُ وَعَـادَتْ إِلَيْهِ قُوَّتُهُ، وَوَاصَلَ دَرْبَـهُ إلى حَيْثُ لاَ يَدْرِي، وَلَمْ يَنْسَ أَنْ يَقُـولَ لِلطَّائِـرِ وَصِغَارِهِ:

- شُكْرًا لَكُـمْ أَيُّهَـا الأَصْدِقَاءُ... لَـنْ أَنْسَى جَمِيلَكُم مَا دُمْتُ حَيًّا.

يَمْشِي الأَمِيرُ سِيسَان تَائِهًا بيْنَ الوِهَاد، غَارِقًا بِأَفْكَـارِهِ فِـي بَحْـرٍ كُثْبَانُـهُ الرَّمْلِيَّـةُ وَأَمْوَاجُـهُ

السَّرَابِيَّةُ المُتَرامِيةُ تَجْذِبُهُ مَرَّةً وَتَدْفَعُهُ مَرَّاتٍ أُخْرَى...

وَجَدَ فِي طَرِيقِهِ كُوخًا قَدِيمًا ، اسْتَأْذَنَ مِن سَاكِنِيهِ طَالِبًا الضِيَّافَةَ، وَلَمَّا دَخَلَ وَجَدَ عَجُوزًا رَحَّبَتْ بِهِ وَقَدَّمَتْ لَهُ جفنَةَ طَعَامٍ وَحَلِيبٍ، بَدأَ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِنَهَمٍ، وَعِنْدَمَا شَبِعَ وَارْتَوَى شَرَعَ فِي رِوَايَةِ قِصَّتِهِ...

قَالَتْ لَهُ العَجُوزُ بَعْدَمَا نَزَلَت دَمْعَتَانِ مِنْ عَيْنَيْهَا الغَائِرَتَينِ:

- لاَ تَخَف أَيُّهَا الشَّابُّ.. ابني فَارِسٌ قَدْ يُسَاعِدُك، وَهَذَا أَوَانُ عَوْدَتِهِ.

وَلَمَّا عَادَ الفَارِسُ رَحَّبَ بالأَمِيرِ وَسَمِعَ قِصَّتَهُ،

ثُمَّ قَالَ لَهُ:

- إنَّ عَمَّكَ كَلَّفَنِي بِمُقَاتَلَةِ العِمْلاقَيْنِ الحَارِسَينِ طَامُوس وَرَامُوس الأُسبُوعَ المُقْبِلَ، لِيَتَمَكَّنَ مِنَ الفتَاتَيْنِ وَيَتَزَوَّجهُمَا بَعْدَ غِيابِكَ المُفَاجِئِ عَن القَصرِ، فَعَرَفَ الأَمِيرُ مِنْ كَلاَمِ الفَارِسِ أَنَّ عَمَّهُ هُوَ الّذِي دَبَّرَ لَهُ المَكِيدَةَ فِي الصَّحْرَاءِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُ، ، وَبَعْدَ صَمْتٍ قَالَ الأَمِيرُ سِيسَان لِلفَتَى:

- عِنْدِي اقْتِرَاح.. هَلْ تَسْمَحُ لِي بِالذَّهَابِ الأُسْبُوعَ المُقْبِلَ لِمُقَاتَلَةِ العِمْلاَقَينِ عِوَضًا عَنْكَ؟

وَافَقَ الفَارِسُ، وَقَدَّمَ لَهُ مَلاَبِسَ القِتَالِ: الحِصَانُ الأَدْهَمُ، النِّبَالُ الحَادَّةُ، السَّيْفُ البَتَّارُ

وَالدِّرْعُ الوَاقِي، ثُمَّ دَلَّهُ عَلَى الطَّرِيقِ...

فِي هَذَا الوَقْتِ كَانَ الفُرْسَانُ السَّبْعَةُ يَتَّجِهُونَ نَحْوَ القَصْرِ رُفْقَةَ الأمِيرَاتِ بَعْدَ إنْقَاذِهِنَّ مِنْ قَبْضَةِ المُخْتَطِفِينِ، الّذِينَ قَامُوا بِإخْفَائِهِنّ فِي إحْدَى المَغَارَاتِ الجبَلِيّةِ، وَكَانَتِ الأمِيرَاتُ فِي حَالَةٍ مِن الذُعرِ والخَوفِ...

اتَّجَهَ الأَمِيرُ سِيسَان مُتَنَكِّرًا بِلِبَاسِ الفَتَى ابنِ العَجُوزِ إلَى مَكَانِ المَعْرَكَةِ، فِي سَاحَةِ القَصْرِ فَوَجَدَ عَمَّهُ وَالنَّاس جَالِسِينَ فِي الانتِظَارِ، واقْتَرَبَ مِنَ العِمْلاقَينِ وَنَادَاهُمَا بِاسْمَيهِمَا فَتَعَرَّفَا عَلَيهِ واتَّفَقُوا عَلى القِيَامِ بِمَعْرَكَةٍ تَمْثِيلِيَّةٍ.

وَبَدَأَ العِرَاكُ الوَهْمِيُّ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَفِي غَمْرَةِ

الاشْتِبَاكِ سَقَطَ العِمْلاَقَانِ، فَظَنَّ العَمُّ وَحَاشِيَتُهُ أَنَّ "طَامُوس وَرَامُوس" قَدْ هَلَكَا، فَاتَّجَهُوا صَوْبَ جَنَاحِ الأَمِيرتَيْنِ لاخْتِطَافِهِمَا.. غَيرَ أَنَّ العِملاَقينِ اسْتَيقَظَا وَأَحَاطَا بِهِم، وَقَبَضَا عَلَيْهِم...

فِي ذَلِكَ الوَقْتِ كَانَ الأَمِيرُ الشَّابُّ مَعَ زَوْجَتَيهِ مُبْتَهِجِينَ، وكَافأَ الأَمِيرُ العِمْلاَقَينِ.

وبعدَ فَترَةٍ قَصِيرةٍ أَقْبَلَ الفُرْسُانُ السَّبْعَةُ وَمَعَهُمْ شَقِيْقَاتُهُ، فَرِحَ الأمِيرُ بِعَودَتِهِمْ وأَقَامَ لَهُمْ عُرسًا بَهِيجًا، حَيثُ تَزَوَّجَ كُلُّ فَارِسٍ وَاحِدةً مِنْهُنَّ، وَعَاشَ الجَمِيعُ فِي سَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ.

بقرة اليتامى

بقرة اليتامى

فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَسَالِفِ العَصْرِ والأَوَانِ كَانَتْ أُسـرَةٌ مُتَكَوِّنَـةٌ مِـنْ أَبٍ وأمٍّ وَطِفْليهِمَـا ظَرِيـفٌ ومَرجَانَةُ يَعِيشُونَ جَمِيعًا فِي كُوخٍ، ومَعَهُم بَقَرَتُهُم، الَّتِي كَانُوا مِن حَلِيبِهَا يَنْتَفِعُونَ، كَانَ الطِّفْلاَنِ ظَرِيفٌ وَمرجَانَـةُ يَقِفَانِ بِالقُرْبِ مِنْهَا فَتُداعِبُهُمَا وَتَلحَسُ بِلِسَانِهَا رَأسَيهِمَا كَأنَّهُمَا وَلَدَاهَا فَيفْرَحَانِ لِذَلِكَ وَتَزْدَادُ سَعَادَتُهُمَا، تَمُرُّ الأَيَّامُ وَاللَّيَالِي وَالطِفلاَنِ يَكبُرَانِ وَتَكبُرُ صِلَتُهُمَا بِالبَقَرَةِ، فَلاَ يَمُرُّ يَوْمٌ مِن غَيرِ أنْ يَقِفَا أَمَامَهَا وَيُقَدِّمَا لَهَا العَلَفَ

وَالحَشِيشَ، لَكِنَّ الأَيَّامَ كَانَتْ تُخَبِئُ لَهُمَا أُمُورًا لاَتَسُرُّ، وَالقَدَرُ يُخْفِي لِلعَائِلَةِ الصَّغِيرَةِ الهَادِئَةِ أَحْدَاثًا سَتُغَيِّرُ حَيَاةَ الطِّفْلَيْنِ.

فَجْأَةً تَمْرَضُ الأُمُّ وَتَضْعُفُ قُوَاهَا فَتُصْبِحُ طَرِيحَةَ الفِرَاشِ، تُمَزِّقُهَا سَكَاكِينُ الوَجَعِ، تَزِيدُهَا حُرْقَةً دُمُوعُ طِفْلَيْهَا وَحَسْرَةُ زَوْجِهَا، كَانَت الفَتَاةُ مَرْجَانَةُ تَسْهَرُ جَانِبَ وَالِدَتِهَا، تُخَفِّفُ حَرَارَةَ جِسْمِهَا، وَاضِعَةً قِطْعَةَ قُمَاشٍ مُبَلَّلَةً بِالمَاءِ البَارِدِ عَلَى جَبِينِهَا... وَمَا عَسَى «ظَرِيف» أَنْ يَفْعَلَ سِوَى ذَرْفِ دُمُوعٍ حَارِقَةٍ شَفَقَةً عَلَى أُمِّهِ.

تَحْضُنُ الأُمُّ طِفْلَيهَا ثم تُمْسِكُ بِيَدِ زَوْجِهَا قَائِلَةً:

- أُوصِيكَ بِظَرِيفٍ وَمَرْجَانَة... وَبِالبَقَرَة، لاَتَبِعْهَا، رَجَاءً...

تَزْدَادُ الحُمَّى وَيَشْتَدُّ مَرَضُهَا ، وَيَحِينُ الأَجَلُ، فَتَرحَلُ الأمّ مِن هَذِهِ الدُّنيَا تَارِكَةً وَرَاءهَا طِفْلَين لِلوحْدَةِ وَالاغْتِرَابِ...

الحُزنُ دَخَلَ البَيْتَ دُونَ اسْتِئْذَانٍ، شَقَاءٌ وَآلاَمٌ مُرَّةٌ مَرَارَةَ العَلْقَمِ وَدُمُوعٌ تَفِيضُ مِنْ عُيُونِهمْ تَجْرِي كَالوِدْيَانِ...

أَصبَحَ الكُوخُ حَزِينًا مُكْفَهِرًّا ، الظَّلاَمُ الدَّامِسُ يَسْكُنُهُ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ كَمَا سَكَنَ أَفئِدَةَ العَائِلَةِ الجَرِيحَةِ، ، صَارَ الطِّفْلاَنِ كَالعُصْفُورَيْنِ الصَّغِيرَيْنِ يَبْحَثَانِ عَن أُمِّهِمَا فِي قَلْبِ أَبِيهِمَا ، الحِدَادُ الأَسوَدُ يُخَيِّمُ عَلَى الجَمِيعِ، حَتَّى البَقَرةُ أَحَسَّت بِفُقْدَانِ صَاحِبَتِهَا فَنَدَرَ الحَلِيبُ فِي ضِرْعِهَا..

بَعْدَ مُدَّةٍ فَكّرَ الأَبُ فِي الزَّوَاج بِامْرَأةٍ أُخْرَى غَيرَ أنّهُ تَرَدَّدَ لأَنَّ زَوْجَتَهُ الأُولَى لازَالَت تحتَلُّ قَلْبَهُ وذَاكِرَتَه، لَكِنَّ حِرصَهُ علَىَ وَلدَيْهِ وَرِعَايَتِهِمَا وَتَدبِيرِ شُؤونِ البَيْتِ جَعَلَهُ يُفَكّرُ فِي الأَمْرِ مَرَّةً ثَانِيةً.

وَتَزَوَّجَ الشَّيخُ مِن امْرأَةٍ ظَنَّ الخَيْرَ فِي نَاصِيتِهَا... أَنْجَبَ مِنهَا بِنْتًا سَمَّاهَا «عَسلُوجَة» وَمَعَ مُرُور الأَيَّام بَدَأَ يَنْبُتُ الغَضَبُ والصِّرَاعُ فِي البَيتِ، كَانَ الطِّفْلاَنِ «ظَرِيفٌ وَمرجَانَة» يَقْضِيانِ وَقْتَيْهِمَا فِي النَّهَارِ مُهملَيْنِ جَائِعَيْنِ، وَعِنْدَ المَبِيتِ يَفْتَرِشَانِ الثَّرَى أَو التِّبْنَ قُرْبَ بَقَرتِهِمَا، يَستَمِدَّانِ العَطْفَ وَالحَنَانَ مِن نَظَرَاتِهَا كَمَا يَستَمِدَّانِ الغِذَاءَ مِن حَلِيبِهَا الدَّسِمِ، فَنَمَا جِسْمَاهُمَا وَتَوَرَّدَتْ خُدُودُهُمَا صِحَّةً وَعَافِيةً.

احْتَارَت زَوْجَةُ الأَبِ فِي أَمْرِ "ظَرِيف وَمرْجَانَة"... رُغْمَ إِهْمَالِهَا لَهُمَا يَزْدَادَانِ نُمُوًّا وَجَمَالاً، وَفِي المُقَابِل يَعْتَرِي عَسْلُوجَة شُحُوبٌ وَهُزَالٌ رَغْمَ عِنَايَتِهَا الفَائِقَةِ بِهَا غِذَاءً وَلِبَاسًا وعَطفًا.

وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ أَوْصَت اِبْنَتَهَا "عَسْلوجَة" قَائِلَةً:

- رَافِقِيهِمَا إِلَى المَرْعَى وَارْصُدِي حَرَكَاتِهِمَا لِتُخْبِرِينِي مِنْ أَيِّ مَصْدَرٍ يَسْتَرزِقَانِ؟ مِنْ أَيْنَ يَأكُلَانِ؟

لَمْ تَكُنْ "عَسْلُوجَة" أَقَلَّ مِنْ أُمِّهَا حِقْدًا وَغيْرَةً نَحْوَ أَخَوَيْهَا "ظَرِيف وَمرجَانَة" مِمَّا جَعَلَ نَارَ الحَسَدِ تَشْتَعِلُ فِي قَلْبِهَا الصَّغِيرِ فَيَصْعَدُ دُخَّانُ اللَّهَبِ إِلَى وَجْهِهَا لِيَجْعَلَهُ أَسْوَد.

اسْتَجَابَت "عسلُوجَة" لِطَلَبِ أُمِّهَا وَرَاحَت تَرْقُبُ الطِّفْلَيْنِ عَنْ بُعْدٍ...!!

كَانَت دَهْشَتُهَا كَبِيرَةً وَهِي تَرَى البَقَرَة فِي مُنْتَصَفِ النَّهَارِ تَقْتَرِبُ مِنْهُمَا فَيُمْسِكَانِ بِضِرْعِهَا لِيَنْهَلاَ مِنْهُ الحَلِيبَ، يَرْضَعَانِ مِثْلَ الصَّبِيينِ التَّوْأَمَيْنِ، كَأَنَّهُمَا يَمْتَصَّانِ ثَدْي أُمِّهِمَا، يَا لَهُ مِنْ مَشْهَدٍ عَجِيبٍ! يَا لَهُ مِنْ مَوْقِفٍ غَرِيبٍ !

حَاوَلَت "عَسلُوجَة" تَقْلِيدَهُمَا، تَقَدَّمَت نَحْوَ البَقَرَةِ وَقَبْلَ أَنْ تَضَعَ فَمَهَا قُرْبَ الضِّرْعِ رَفَسَتْهَا البَقَرَةُ بِحَافِرِهَا فَأَصَابَت عَيْنَهَا اليُمْنَى..

وَعَادَت إِلَى أُمِّهَا مُغْمَضَةَ العَيْنِ بَاكِيّةَ الأُخْرَى، اغْتَاضَت الزَّوْجَةُ لَمّا عَرَفت السبَب وَاشْتَدَّ غَضَبُهَا فَعَاقَبَت الطِّفْلَيْن "ظَرِيف وَمرْجَانَة" وَقَرَّرَت التَّخَلُّصَ

مِن البَقَرَةِ (أُمّ اليَتَامَى).

وَفِي المسَاء قَالَت لَهُ:

- أيُّهَا الرجُل نَحْنُ لَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلى البَقَرةِ.

رَدَّ عَلَيْهَا فِي دَهْشَةٍ وَغَضَبٍ:

- مَاذَا تَقُولِين أَيَّتُهَا الحَمْقَاءُ؟ أجُنِنْتِ؟ أَنَسِيتِ حَلِيبَهَا وَلَبَنَهَا وَسَمنَهَا؟!!

قَالَت وَهِي تُلِحُّ فِي جُرأَةٍ وَقِحَةٍ:

- بِعْهَا وَاشتَر لَنَا حِمَارًا نَرْكَبهُ فَيُريحُنَا ، إِنِّي كَرِهْتُهَا ، بَقَرَةٌ مُتْعِبَةٌ ، لاَ أُرِيدُ رُؤْيَتَهَا بَعْدَ اليَوْم.. وَبَاتَا لَيْلَتَهُمَا مُتَخَاصِمَيْنِ.

وَمَـعَ إِصْـرَارِ الزَّوْجَـةِ عَلَـى رَأْيِهَـا ضَـعُفَ مَوقِـفُ الشَّيْخِ فانْصَاعَ لِرَغْبَةِ زَوجَتِهِ...

مَـعَ مَطْلَـعِ الفَجْـر لَـبِسَ الـزَّوْجُ عَبَاءتَـهُ البَيْـضَاءَ وَرَمَى بُرنُوسَهُ البُنِّيَّ الطَّوِيلَ عَلَى كَتِفَيْهِ وَاتَّجَهَ نَحْوَ الاسْطَبْلِ مَاسِكًا الحَبْلَ بِيَدَيْهِ الـمُرْتَعِشَتَيْنِ لِيَضَعَهُ حَوْلَ قَرْنَيْ بَقَرَةِ اليَتَامَى...

كَانَت البَقَرَةُ فِي طَرِيقِهَا إِلَى السُّوقِ الأُسْبُوعِي تَبْكِي بِلاَ دُمُوعٍ وَكَأَنَّهَا عَرَفَت مَصِيرَهَا ، بَلْ إِنَّهَا كَانَت تَبْدُو حَزِينَةً لِفرَاقِ الطِّفْلَيْنِ.

أقْبَلَ الـصُّبْحُ حَزِينًـا وَذَهَـبَ الطِّفْـلانِ "ظَرِيـف وَمرجَانَـة" إلى مَكَانِهَـا كَالعَـادَة لِـشُرْبِ حَلِيـبِ الـصَّبَاحِ فَوَجَدَا الـمَكَانَ خَالِيـا.. لَـمْ يَجِدَا الـكَنْـزَ

الّذِي تَرَكَتْهُ لَهُمَا أمُّهُمَا فَشَعَرَا بِمَوْتِ أمِّهِمَا مَرَّةً ثَانِيَةً، وَبَكَيَا كَثِيرًا لَمّا عَلِمَا بِالحَقِيقَةِ...

كَانَ الشَّيخُ فِي طَرِيقِهِ يُرَدِّدُ فِي نَفْسِهِ كَلِمَاتٍ يَقْصِدُ بِهَا زَوْجَتَهُ:

- هِي تَقُول وَأَنَا أَقُول... هِي تَقُول وَأَنَا أَقُول حَتَّى غلَبَتْنِي بِالقَوْل... لَقَدْ صَدَقَ مَنَ قَالَ: لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ إلاّ الحَمَاقَةُ أَعْيَت مَنْ يُدَاوِيهَا، يَا لَيْتَنِي تَزَوَّجْتُ بِالضَّاوِيَة بِنْتُ المَدَّاحِ المَرْأَة الكَرِيمَةُ العَطُوفَةُ.

فِي السُّوقِ الأُسْبُوعِي حَيْثُ يَجتَمِعُ التُّجَّارُ بِالفَلاَّحِينَ وَيَلْتَقِي الغَنِيُّ بِالفَقِيرِ وَالفَلاَّحُ بِالأَمِيرِ وَالحَلِيمُ بِالغَرِيرِ، كَانَ النَّاسُ يَحْمِلُونَ السِّلَلَ

الحَافِلَـةَ بِـمُخْتَلَفِ أَنْـوَاعِ الخُـضَرِ وَالفوَاكِـهِ الـشَّهِيَّةِ التِي مَنَّت بِهَا عَلَيهِم الأَرْضُ...

كَمَـا عُرِضَـت فِـي الـسُّوقِ أَوَانٍ طِينِيَّـةٍ أَبْـدَعَتْهَا أَنَامِـلُ النِّـسَاءِ القَرَوِيَّـاتِ فِـي أَشْـكَالٍ مَنْقُوشَـــةٍ وَمَظَاهِر مَنْحُوتَةٍ وَصُوّرٍ مُزَرْكَشَةٍ قَشِيبَةٍ أَخَذَت مِنْ أُمِّنَـا الأَرْض زُخْرُفَهَا.

وَفِي بَابِ السُّوقِ بَدَأَ يُنَادِي:

- مَـنْ يَشْتَرِي بَقـرَةَ الأيتَـامِ؟ مَـنْ يَـشْتَرِي بَقـرَةَ الأيتَامِ؟

لَمْ يُقْبِل عَلَيهِ أَحَدٌ، كَانُوا يَخْشَونَ الاقتِرَابَ مِن مَالِ اليَتِيم...لَكِنَّ أحَدَ الجَزَّارِينَ تَقَدّمَ مِنـهُ وَاشْـتَرَى البَقَـرَةَ، وَعَـادَ الرَّجُلُ إلىَ بَيْتِـهِ حَزِينًـا يَـدْعُو اللُّطـفَ

وَالرَّحمَـة لِصَغِيرَيـهِ اللَّذَين وَجَدَهُمَا مَكَـانَ البَقَـرَة فِـي حِـدَادٍ، يَنْظُـرَان نَحْـوَهُ نَظَـرَاتٍ غَرِيبَـةٍ مَمْزُوجَـةٍ بِالعِتَابِ وَالاستِفهَامِ...

وَفِي الـمَسَاءِ استَلقَى الـشَّيخُ عَلَـى فِرَاشِـهِ، وَبَعْـدَ أَرَقٍ وَسُهَادٍ استَسْلَمَ لِلنَّـومِ، فَـرَأَى فِـي الحُلُـمِ زَوجَتَـهُ الأُولَـى، أُمُّ الطِّفْلَينِ تَزُورُهُ دَامِعَةَ العَينَـينِ وَهِـي تَقُـولُ لَهُ:

- لَقَد ضَيَّعتَ «الأَمَانَةَ»، ثُمَّ تَطلُبُ مِنْهُ الـذَّهَابَ إلى الجَـزَّارِ لاسـتِرْجَاعِ ضِـرْعِ البَقَـرَةِ ووَضْـعِه عَلَـى قَبْرِهَا.

قَـامَ الـشَّيخُ مِـنْ نَومِـهِ فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْـلِ مَفْزُوعًـا وَلَـبِسَ عَبَاءَتَـهُ، ثُـمَّ غَـادَرَ بَيْتَـهُ صَـامِتًا، وَفِـي سُـرعَةٍ

عَجِيبَـةٍ هَـرْوَلَ نَحْـوَ دَارِ الجَـزَّارِ، وَأَكمَـلَ الهَزِيـعَ الأَخِيرَ مِنَ اللَّيْلِ أَمَـامَ البَابِ يَنتَظِرُ خُرُوجَهُ.

استَيقَظَ الجَزَّارُ عَلى نُبَاحِ الكَلْبِ فَوَجَدَ الشَّيخَ عَلَـى عَتَبَـةِ بـاب البَيْـتِ يَرتَعِـدُ مِـن البَـردِ، استَغْرَبَ لِحَالِهِ وَاستَفْسَرَهُ عَنْ رَغبَتِهِ، تَعَلَّقَ الشَّيخُ بِمَلاَبِسِ الجَزَّارِ يُقَبِّلُ يَدَيهِ مُلتَمِسًا مِنْهُ إعطَاَءهُ ضِرْعَ البَقَرَةِ، كَانَ الطَّلَبُ غَرِيبًا لَكِنَّ قَلْبَ الجَـزَّارِ رَغْمَ قَسْوَتِهِ رَقَّ لِحَالِ الشَّيخِ وَاستَجَابَ لِرَغْبَتِهِ وَقَدَّمَ لَهُ مَا أَرَادَ...

حَمَلَ الشَّيخُ ضِرْعَ البَقَرَةِ بِيَدَيهِ وَالحَلِيبُ يَتقاطرُ مِنْهُ مَمْزُوجًا بِالدَّمِ، وَوَضَعَهُ دَاخِلَ قلمُونَة برنُوسِهِ، وَسَارَ فِي اتِّجَاهِ المَقبَرَةِ التِي تَنَامُ فِيهَا زَوجَتُهُ الأُولَى، عِندَمَا وَصَلَ إلىَ قَبْرِهَا حَيَّاهَا فِي أَسَفٍ

وَحَسْرَةٍ، ثُمَ وَضَعَ الضِّرْعَ عَلَى قَبْرِهَا وانْصَرَفَ إِلَىَ بَيْتِهِ.

يَشْتَدُّ الزَّمَنُ علَىَ الطِّفلَينِ بِمَرَارَتِهِ الـمُتَوَالِيِةِ مَعَ الأَيَّامِ، لَقَدْ حَزِنَا حُزْنًا عَمِيقًا لِغِيَّابِ بَقَرَتِهِمَا... الجُوعُ يُضنْيِهِمَا وَزَوجَةُ أَبِيهِمَا تَرْفُضُ الاسْتِجَابَةَ لِتَوسُّلاَتِهِمَا الـمُنْبَعِثَةِ مِنْ مَعِدَتَيهِمَا الخَاوِيَتَينِ، شَحبَ لَونُ وَجهَيهِمَا وَهَزُلَ جِسمَاهُمَا حَتَى تَغَيَّرَت مَلامِحُهُمَا...

وَفِي يَومٍ مِنَ الأَيَّامِ اشْتَدَّ شَوْقُهُمَا لِرُؤيَةِ أُمِّهِمَا فَذَهَبَا خِفيَةً إلىَ مَقبَرَةِ القَريَةِ يَزُورَانِ قَبرَهَا وَيَشكُوَانِ لَهَا حَالَهُمَا ، وَصَلاَ القَبرَ جَائِعَين يَلهَثَانِ مِن العَطَشِ، ،

فَانْدَهَشَا... قَصَبَتَانِ صَغِيرَتَانِ نَبَتَتَا عَلَى قَبْرِ أُمِّهِمَا، وَاحِدَةٌ تَسِيلُ حليبًا وَأُخْرَى عَسَلاً، وَبِالقُرْبِ مِنْهُمَا نَخلَتَانِ بَاسِقَتَانِ كثِيرَتَا العَرَاجِينِ التَّمْرِيَّةِ.

احتَضَنَ الطِّفلاَنِ قَبرَ أُمِّهِمَا فَرِحَيْنِ مَسْرُورَيْنِ بِلِقَائِهَا وَكَأَنَّهُمَا يَسمَعَانِ صَوتَهَا يَنْبَعِثُ مِنْ تَحتِ التُّرَابِ، وتَذَكَّرَا حُضنَهَا الدَّافِئَ الحَنُونَ فبَكَيَا حَتَّى تَبَلَّلَ تُرَابُ قَبْرِهَا.

شَرِبَا الحَلِيبَ والعَسَلَ مِن القَصَبَتَينِ وَأَكَلاَ التَّمرَ مِن النَّخْلَتَينِ حَتَّى شَبِعَا وَارتَوَيَا، ثُمَّ تَحَوَّلاَ بِنَظَرَاتِهِمَا يَتَطَلَّعَانِ إِلىَ السَّمَاءِ وَإِلىَ النَّخلَتَينِ فِي صُورَتِهِمَا الشَّبِيهَتَينِ بِقَرْنَيْ البَقَرَةِ، وظَلَّ الطِّفلاَنِ اليَتِيمَانِ يُنَاجِيانِ أُمَّهُمَا فِي مَظهَرٍ إِنْسَانِيٍّ لاَمَثِيلَ لَهُ.

قَدِمَ الطِّفْلاَنِ إلىَ المَكَانِ مَرَّةً ثَانِيةً وَثَالِثَةً، يَرتَادَانِهِ وَقْتَ الحَاجَةِ حتَّى عَادَت النَضَارَةُ إِلىَ وَجهَيْهِمَا وَالسِّحرُ إِلىَ مُحَيَّيْهِمَا وَالعَافِيةُ إِلىَ جِسْمَيهِمَا، فَعَاوَدَ زَوجَةَ أَبِيهِمَا الحَسَدُ وَالضَّغِينَةُ، وَطَلَبَت مِنْ ابْنَتِهَا "عَسْلوجَة" إعَادَةَ الكَرَّةَ مَرَّةً ثَانِيَةً.

كَانَ الوَقْتُ أَصِيلاً عِنْدَمَا وَصَلا ظَرِيفٌ وَمرجَانَةُ إلى قَبرِ أمِّهِمَا وَشَرعَا فِي هَزِّ جِذعَي النَّخْلتَينِ فتَساقَطَ الحَبُّ رَطَبًا شَهِيًّا، ثمَّ شَرِبَا الحَليبَ مِن القَصَبتَينِ... وَانكَشَفَ السِّرُّ لعَسْلوجَة التِي كَانَت وَارَءهُمَا فتَقَدَّمَت مِن القَصَبَة وَتَجَرَّعَت قَلِيلاً مِن الحَلِيب وَأَبْقَتْ جُرعَةً فِي فَمِهَا، كَمَا وَضَعَت تَحْتَ شَفَتِهَا السُّفْلَى شَقَّ تَمْرَةٍ ثُمَ اتَّجَهَتْ نَحْوَ البَيْتِ مُسرِعَةً لِتَجِدَ أمَّهَا فِي انْتِظَارِ الأَخبَارِ.

بَاتَــت زَوْجَــةُ الأَبِ تُفَكِّــرُ فِي أَمْــر القَــصَبَتَينِ وَالنَّخْلَـتَينِ، أَرْهَقَهَـا الـتَّفْكِيرُ وَلَـمْ تَجِـد لِلمَوضُــوعِ حِيلَةً، ومَعَ الصَّبَاحِ سَمِعَت الدَّلّال يُنَادِي لِبَيعِ مَا لَدَيهِ مِــن كِــسْوَةٍ وَعَقَــاقِيرٍ، هَرَعَــت إِلىَ بَــابِ الكُــوخِ تَسْأَلُهُ:

- مَا فِي حَوزَتِكَ لقَطعِ النَّخلَةِ والقصبِ؟

أَجَابَ وَالعَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِن جَبِينِهِ:

- القَطرَانُ فِي عُرُوقِ النَّخْلِ والقصب، يُـمِيتُ الجُذُورَ فَتُصبِح سِوَاكًا وَبُخُورًا .

أَطْرَبَهَا جَوَابُ الـدَّلّال فَاشْتَرَت مِنْـهُ مَـا يَكفِيهَـا لِلفَتْكِ بِالنَّخْلَتَينِ، وَاتَّجَهَـت صَوْبَ الـمَقْبَرَةِ لاَهِثَـةً، تَحْمِـلُ القَطْـرَانَ فِـي يَـدِهَا وَالـمَكْر فِـي قَلْبِهَـا،

وَمَـا إنْ وَصَلَت مَوضِـع القَـصَبَتَيْنِ والنَّخْلَـتَينِ حَتَّـى بَحَثَتْ عَـنْ جُـذُورِهِمَا وَدَسَّـت فِيهِمَـا القَطْـرَانَ، بَعْـدَ عَوْدَتِهَا إِلىَ البَيْتِ مَكَثَت صَامِتَةً صَمْتَ الـمُذْنِبِينَ، لاَ يَـرَى الرَّائِـي فِـي عَيْنَيْهَـا الغَـائِرَتَينِ غَيْـرَ عَلاَمَـاتِ الـمَكْرِ وَالدَّهَاءِ.

أَقْبَلَ الـشَّيخُ مِـنْ عَمَلِـهِ مُتْعَبًـا وَقَـدْ ضَـعُفَ بَـصَرُهُ وَابيَضَّ شَعْرُهُ، وَاحـدَوْدَبَ ظَهْـرُهُ، وَقَبْـلَ أنْ يَـسْتَرِيحَ وَقَفَـت فِـي وَجْهِـهِ صَارِخَةً مُتَصَنّعَةً الغَضَب:

- هَيَّا أَبْعِدهُمَا عَنِّي، لَقَدْ كَـرِهْتُهُمَا...

يَتَسَاءلُ العَجُوزُ فِي حيرَةٍ:

- مَنْ تَقصِدِين؟

قَالَت:

- ظَرِيف ومَرْجَانَة، اللّذَانِ تَسَبَّبَا فِي تَعْوِيرِ عَيْنِ ابْنَتِي "عَسلُوجَة".

مَعَ الصَّبَاحِ البَاكِرِ يُجَهِّزُ الشَّيْخُ ابْنَهُ ظَرِيفا وَابْنَتَهُ مرجَانَة لِلرَّحِيلِ، قَصَدُوا الغَابَةَ تُرَافِقُهُم الدُّمُوعُ، وَفِي نِهَايَةِ الدَّربِ الزِّرَاعِي المُلتَوِي قُربَ سَفْحِ الجَبَلِ وَدَّعَهُمَا الشَّيْخُ بِشَهَقَاتٍ حَزِينَةٍ وَهُوَ يَضَعُ فِي أَيْدِيهِمَا قِطَعًا مِنَ الخُبْزِ وَكِيسًا مَمْلُوءً بِأَلبِسَتِهِمَا وَفِرَاشِهِمَا... وَعَادَ إِلىَ البَيْتِ كَئِيبًا، عَادَ وَحْدَهُ يَبْكِي حُرقَةَ الوَدَاعِ الأَبَدِي...

وَيَسِيرُ الطِّفْلاَنِ قَاطِعَيْنِ الوِهَادَ وَالجِبَالَ وَالأَدْغَالَ، هَائِمَيْنِ عَلَى وَجْهَيْهِمَا لاَ يَعْرِفَانِ

لِرِحلَتِهِمَا اتّجَاهًا أَوْنِهَايَةً... أَخَذَ التَّعَبُ مَوْضِعَهُ مِنْهُمَا فَجَـفَّ رِيقهُـمَا عَطَـشًا وَالْتَـوتْ أَمْعَاؤُهُمَـا جُوعًـا وَكَـادَا يَمُوتَانِ عَيَاءً وَظَمَأً لَوْلاَ إشْـرَافُهُمَا عَلَـىَ نَهْـرٍ جَارٍ بَدَا لَهُمَـا مـن بَعِيـدٍ كَالسَّرَابِ.. وَعِنـدَمَا وَصَـلاَ النَّهْرَ لاَحَظَت مرجَانَة سَائِلاً سِحْرِيًّا يَخْتَلِطُ بِالـمَاءِ، فَتَذَكّـرت قِـصَّةَ الـوَادِي الـسِّحْرِي الـذِي يَغْـسِلُ الأَبْدَان مِنَ الدَّنَسِ وَيُحَوِّلُ شَارِبِي مَائِهِ إِلىَ غِزْلاَنٍ!!

أَسْـرَعَ أَخُوهَـا ظَرِيـف نَحْـوَ النَّهْـرِ وَانْكَـبَّ عَلـىَ صَفْحَةَ الـمَاءِ يُرِيدُ إِطْفَـاءَ نَـارِ العَطَـشِ الـمُلْتَهِبَةِ فِـي حَلْقِهِ لَكِنَّ أُخْتَهُ مَنَعَتْهُ مِن الشُّربِ وَبِصُعُوبَـةٍ أَبْعَدَتْـهُ عن الـمَـاءِ وَوَاصَلاَ طَرِيقَهُمَا..

فجْـأَةً تَوقَـفَ الطِّفْلُ ظَرِيف عَنِ الـمَشِي وَأَخْبَـرَ أُخْتَهُ بِضَيَاعِ قِلاَدَتِـهِ عِنْـدَ الـوَادِي، قِـلاَدَة الـذِكْرَى

وَالتِذْكَار، المُهْدَاة لَهُ مِنْ أُمِّهِ العَزِيزَة، فسَمَحَت لَهُ شَقِيقَتُهُ بِالعَوْدَةِ لِلْبَحْثِ عَنْ قِلاَدَتِهِ وَأَوْصَتْهُ بِالامتِنَاعِ عَنِ الشُّرْبِ، رَجَعَ الطِّفْلُ إلىَ النَّهْرِ لِلْبَحْثِ عَنْ ضَالَّتِهِ، لَكِنَّ انسِيَابَ المَاءِ بَيْنَ الحَصَى زُلاَلاً صَافِيًا أَفْقَدَهُ الصَّبْرَ، فَلَمْ يَتَمَالَك نَفْسَهُ وَانْهَالَ عَلىَ المَاءِ يَعُبُّهُ عبًّا، وَفِي لَحْظَةٍ، حَدَثَ العَجَبُ..!! تَحَوَّلَ الطِّفْلُ ظَرِيف إِلَى مَخْلُوقٍ آخَر يُشْبِهُ الغَزالَ..!! فَانْدَهَشَت مَرْجَانَةُ لِذَلك وَبَقِيت حَائِرَةً.

جلَسَتْ تَحْتَ شَجَرَة تُمَشِّطُ شَعْرَهَا وَالطِّفْلُ الغَزَالُ أَمَامَهَا يَرْتَشِفُ جُرُعَاتِ أُخرى مِن المَاءِ لاَيَدْرِي وَلاَيُدْرِكُ حَالَهُ..

انْسَلَّت مِنْ شَعْرِهَا الذَّهَبِي شَعْرَةٌ وَاحِدَةً، كَانَت طَوِيلَةً فِي امتِدَادِ سَالِفِهَا الطَّوِيلِ، سَقَطَت

الـشَّعْرَةُ فِـي مَجْـرَى النَّهْـرِ فَجَرَفَهَـا التَّيَّـارُ وَسَـرى يَتَلاَعَبُ بِهَا مَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ، حَتَّى تَوقفَت فَجْـأَةً بَيْنَ أَنَامِلِ يَدٍ بَشَرِيَّةٍ، ، إِنَّهَا يَدُ سُلْطَانِ البِلاَدِ...

مُنْذُ حِينٍ كَانَ السُّلطَانُ يَتَجَوَّلُ فِي رِحلَةِ صَيْدٍ، يَـصْحَبُهُ الجُنْـدُ وَسَـطَ الأَدْغَـالِ وَالأَحْـرَاشِ، وَعِنْـدَ الظَّهِيرَةِ أَرَادَ الاسْتِحْمَامَ بِمَاءِ النَّهْرِ الدَّافِىءِ استِعدَادًا لِتَنَـاوُلِ وَجْبَـة الغَـداءِ، جَلَسَ عَلـىَ ضِفَّةِ النَّهْـرِ وَوَضَـعَ يَـدَهُ فِـي الـمَاءِ يُعَـاكِسُ التَّيَّـارَ الجَـارِي مُـسْتَلِذًّا بِانْسِيابِ المَاءِ بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَسَرَيَانِ النَّسِيمِ العَلِيلِ بَيْنَ السَّنَابِلِ، عِنْدَمَا حَمَلَ السُّلْطَانُ الشَّعْرَةَ فِي كَفِّهِ كَانَـت أَشِـعَّةُ الـشَّمْسِ تَـنْعَكِسُ عَلَيهَـا فَتَمَاوَجَـت أَلْوَانُهَـا فِـي مَنْظَـرٍ سِـحْرِيٍّ بَـدِيعٍ، تَفَحَّـصَ الـشَّعْرَةَ الذَّهَبِيَّـةَ كَثِيرًا وَبِفَرَاسَـةِ الأَذْكِيَاءِ عَرَفَ أَنَّ الشَّعْرَةَ

لِفَتَـاةٍ رَائِعَـةٍ الحُسْنِ، وَقَفَ الـمَلِكُ صَـامِتًا ثُمَ اعْتَلَـى جَوَادَهُ فَاجْتَمَعَت حَاشِيتُـهُ قُرْبَهُ تَنْتَظِرُ الأَوَامِرَ، ، قَدَّمَ لَهُم الشَّعْرَةَ قَائِلاً:

- جَاءت مَعَ الـمَاءِ، ، أُرِيدُ رُؤيَةَ صَاحِبَتهَا فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ.

وَبَعْدَ هُنَيهَـةٍ مِنَ الـزَّمَنِ كَانَ الجُنْـدُ يَسْلُكُونَ ضِـفَّتَي النَّهْـرِ قَاصِـدِينَ مَنَـابِعَ الـمَاءِ لِلْوصُـولِ إِلىَ صَاحِبَةِ الشَّعْرَةِ الذَّهَبِيّةِ، ، وَجَدُوا فِي طَرِيقِهِم نِسَـاءً كَثِيرَات يَغْسِلْنَ ثِيَّابَهُنَ وَيَنْشُـرْنَهَا عَلَـى الـشُّجَيْرَاتِ القَرِيبَةِ مِنَ النَّهْرِ، كَمَا شَاهَدُوا فَتَيَـاتٍ يَسْتَحمِمْنَ بِمَـاءِ النَّهْرِ وَقَدْ أَفْـزَعَهُنَ قُدُومُ الجُنْدِ بَغْتَةً مِنْ حَيْثُ لاَ يَـدْرِينَ، وبَعْـدَ أُسْـبُوعٍ مِـنَ البَحْـثِ الـدَّقِيقِ وَالاسْتِطْلاَعِ الوَاسِعِ، وَمُقَارَنَة الشَعرَة الذَّهَبية بِشَعر

كُلِّ امْرَأَة عَادَ الجندُ خَائِبِينَ، فَاغْتَمَّ السُّلطَانُ لَمَّا عَلِمَ بِالأَمْرِ، ولِعَجْزِ سُلطَانِهِ فِي الوُصُولِ إلىَ شَيءٍ بَسِيطٍ فِي مَمْلَكَتِهِ وَهُوَ الآمِرُ النَّاهِي...

وَمَرَّت الأَيَّامُ فَانْشَغَلَ بِأُمُورِ الرَّعِيَّة لَكِنَّهُ لَمْ يَنْسَ إِخْفَاءَ الشَّعْرَةِ فِي صُنْدُوقِهِ الخَاصِ مَعَ لَوَازِمِهِ السِّرِيَّةِ..

هَاهِي الفَتَاةُ "مرجَانَة" تَمْشِي وَأَخُوهَا الطِّفْلُ الغَزَالُ "ظَرِيف" يَتْبَعُهَا فِي مَشْهَدٍ غَرِيب، ، وَفِي غَمْرَةِ حيرَتِهَا الكُبْرَى شَاهَدَت كُوخًا قَدِيمًا يَتَوسَّطُ الأَشْجَارَ فَأَسْرَعَت بِهَا قَدَمَاهَا نَحْوَهُ، إِنَّهُ لِعَجُوزٍ طَيِّبَةٍ تَعِيشُ مِنَ الأَعْشَابِ وَالعَقَاقِيرِ التِي تَبِيعُهَا لِلدَّلَّالِ عِنْدَمَا يَأتِي كُلّ صَبَاح مُنَادِيًا :

- غِذَاؤُكَ دَوَاؤُكَ، هَاتِ مَاعِنْدَكَ أُعْطِيكَ

مَاعِنْدِي، ، البَيْعُ لاَ ، وَالـمُبَـادَلاَتُ نَعَمْ.

رَحَّبَت بِالطِّفْلَةِ التِي جَاءَت تُرِيدُ الطَّعَامَ وَالـمَاءَ لَهَـا وَلأَخِيهَـا ، ثُـمَّ سَـأَلَتهَا وَهِـي تُقَـدّمُ لَهَـا الخُبْـزَ وَالـمَاءَ:

- أَيْنَ أَخُوكِ؟

وَلَـمّا أَكَلَـتْ "مَرْجَانَـة" وَأَخُوهَـا الغَـزَالَ حَتَّـى شَبِعَت قَصَّت عَلَى العَجُوزِ الحِكَايَةَ مِنَ البِدَايَةِ إِلىَ النِّهَايَة، وَلَمَا سَمِعَت العَجُوز قِصّتَهُمَا قَالَتْ لَهُمَا :

- أنَـا أُمُّكُمَـا الآن... ثُـمَّ نَظَـرَت إلىَ الـسَّمَاءِ قَائِلَةً:

- شُكْرًا لَكِ أيَّتُهَـا العِنَايَـةُ الإلهِيَّـة لَقَـدْ حَقَّقْـتِ حُلُمِي، ، حُلُمِي الدَّفِـينَ مُنْـذُ سِنِينَ.

عَمَّ الخَيْـرُ البَلـدَةَ بِحُلولِ "مَرجَانَـة وَظَرِيـف" بَيْـتِ العَجُـوزِ، إِذْ نَـزَلَ الغَيْـثُ وَتَفَجَّـرَتِ اليَنَـابِيعُ الـمَائِيَّة وَاخْضَرّتِ الأَرْضُ، وَغَمَرَت خَيْمَتَهَا الأَرْزَاقُ.

وَيَأْتِي الدَّلَّالُ يَأْخُذُ طَبَقَ الأَعْشَابِ فَيَجِدُ بِدَاخِلِهِ ذَهَبًا ، اِسْتَمَـرَّ الحَـالُ شُهُورًا وَالدَّلَّالُ فَرِحٌ وَمُتَعَجِّبٌ، لَكِنَّ الاسْتِغْرَابَ كَانَ يَشْغَلُ بَالَهُ، فَقَرَّرَ بَعْدَ سِنِين اطلاَعَ السُّلْطَانِ عَلَى هَذَا السِّرِّ العَجِيـبِ.. الأَعْشَـابُ تَصِيرُ ذَهَبًا وَالصَّيْفُ يُصْبِحُ رَبِيعًا!!

زَوْجَـةُ الأَبِ وَابْنَتُهَـا "عَـسْلوجَة" تُقَـرِّرَانِ الرَّحِيـلَ وَالشَّيخُ يُمَانِعُ طَمَعًا فِي عَودَةِ طِفلَيْـهِ إِلَيـهِ، وَسَافَرَ الثَّلاَثَـةُ إِلَى غَيْـرِ رَجْعَـةٍ تَـارِكِينَ البَيْـتَ أَطْـلاَلاً ، تَتَلاَعَبُ الرِّياحُ بِسَقْفِهِ النَّبَاتِيِّ.

أَصْبَحَ الدَّلّاَلُ مِنَ الأَغْنِيَاءِ لَكِنَّهُ لَمْ يَنْقَطِعْ عَنِ حِرفَتِهِ، فِي يومٍ مِنَ الأَيَّامِ قَرّرَ الذَّهَابَ إِلَى قَصْرِ السُّلْطَانِ وَطَلَبَ مِن الحُرَّاسِ السَّمَاحَ لَهُ بِمُقَابَلَةِ السُّلطَانِ، وبَعْدَ مُحَاوَلاَتٍ كَانَ لَهُ مَا أَرَادَ.

- العَظَمَةُ وَالجَلالَةُ لِمَولاَنَا السُّلطَان.

يُشِيرُ عَلَيْهِ السُّلطَان بِيَدِهِ اليُمنَى قَائِلاً:

- هَاتِ مَاعِنْدَكَ أَيُّهَا الرَجُلُ، إِنْ كُنْتَ مَظْلُومًا فَأَنَا مُنْصِفُك وَإِنْ كُنْتَ مَسْلُوبَ الحَقِّ أَنَا رَادُّهُ لَك.. انْشُر مَا فِي صَدْرِكَ...

الدّلاّل مُبْتَسِمًا:

- عَفْوَكَ يَا مَولاَي، لاَ هَذَا وَلاَ ذَاك، إِنَّ سَبَبَ حُضُورِي ظَاهِرَةٌ أَذْهَلَتْنِي وَأَطْلُبُ مِن مَوْلاَي السُّلطَان

السَّمَاحَ بِسَرَدِ قِصَّةِ العُشبِ الذَّهَبِيِّ.

شَجِّعهُ السُلطَانُ بِإيحَاءٍ مِنْ مَلاَمِحِهِ، فَأطْلَقَ الدَّلاَّلُ العِنَانَ لِلِسَانِهِ يَصُولُ وَيَجُولُ وَاصِفًا المَكَانَ وَالزَّمَانَ بِأَوْصَافٍ شَتَّى أَثَارَت فُضُولَ السُّلطَانِ فَأَمَرَ أَحَدَ حُجَّابِهِ بِإحْضَارِ العَجُوزِ وَمن مَعَهَا قَبْلَ غُرُوبِ شَمْسِ ذَلِكَ اليومِ.

غَابَت الشَّمْسُ فِي الأُفُقِ وَفِي القَصْرِ أشْرَقَتْ شَمْسٌ أُخْرَى، إنَّهَا الفَتَاةُ مَرجَانَة وَأَخُوهَا الغَزَال رُفْقَةَ العَجُوزِ، أَدْخَلَهُم حَاجِبُ القَصْرِ فَبُهِتَ السُّلطَان لِجَمَالِهَا ، كَانَ سِحرُهَا يَسْرِي فِي النُّفُوسِ كَالمَوجِ فِي امتِدَادِهِ، جَاءَ السُّلطَان فِي الحِينِ بِالشَّعْرَةِ الذَّهَبِيَةِ وَقَارَنَهَا بِشَعْرِ الفَتَاةِ فَإذَا بِهَا تُشْبِهُهُ..

- يَا لَهَا مِن صُدْفَةٍ عَجِيبَةٍ !!

قَالَهَا السُّلطَانُ وَهُوَ يُرَحِّبُ بِهِم ويُكْرِمُ حُضُورَهُم، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُم الإقَامَةَ فِي جَنَاحِ الضِّيافَةِ ثَلاثَةَ شُهُورٍ لِعِلاَجِ الغَزَالِ بعْدَ أنْ عَرفَ قِصَّتَهُ.

أَصْدَرَ إلى عُمَّالِهِ فِي الأقَالِيم نِّدَاءً عَاجِلاً لدَعْوَةِ أَكْفَأ الأطِبَاء وَالعُلَمَاءِ إلى قَصْرِهِ، وَجَاءَ يَومُ الصَّبَاحِ الثَّانِي وَبَدأَت مَعَهُ وُفُودُ الأَطِبَّاء وَالعُلَمَاءِ تَصِلُ القصر زَرَافَاتٍ وَوِحْدَانًا.

طَلَبَ السُّلطَانُ مِن الجَمِيعِ البَحْثَ عَن عِلاَجٍ لِلطِّفلِ الغَزَالِ كَي يَعُودَ لِصِفَتِهِ البَشَرِيَّة، لَمْ يُخْفِ الحَاضِرُونَ اندِهَاشَهُم.. تَنَاظَرُوا فِيمَا بَيْنَهُم وَشَرَعُوا فِي التَّفكِير وَالبَحْثِ وَإجْرَاءِ التَّجَارِبِ...

فِي أَيَّامِ العِلاَجِ وَالضِّيافَةِ عَرَضَ السُّلطَانُ عَلَى مرجَانَةَ الزَّوَاجَ.. فَوَافقَت لَكِنَّهَا اشْتَرَطَت عَلَيهِ الوَعْدَ بِعِلاَجِ أَخِيهَا حَتَّى الشِّفَاءِ التَّامِ، فَقَبِلَ السُّلطَانُ ذَلكِ وَأَقَامَا عُرسًا بَهِيجًا..

وَفِي يَومٍ كَانَ السُّلطَانُ غَائِبًا عَنْ قَصْرِهِ جَاءَ فَقِيرٌ فِي ثِيَابٍ بَالِيَّةٍ يَطلُبُ صَدَقَةً، كَانَ الوَقْتُ أَصِيلاً، إنَّهُ الزَّمنُ الذِي تَخْرُجُ السُّلطَانَةُ إِلىَ شُرفَتِهَا تَتَأَمَّلُ الكَوْنَ وَتُودِّعُ الشَّمْسَ وَهِي تَلبَسُ عَبَاءَتَهَا ذَاتَ اللَّونِ الوَردِي، وَقَعَ بَصَرُهَا عَلَىَ رَجُلٍ مُتَسَوِّلٍ يَرْفَعُ يَدَهُ نَحْوَهَا، فَاقشَعَرَّ جِسْمُهَا وَأَحَسَّت بِشُعُورٍ غَرِيبٍ يَغْمُرُهَا.

طَلَبَت مِنَ الحُرَّاسِ إِدْخَالَهُ السَّاحَةَ... فَنَزَلَت مِن الطَّابَقِ العُلوِيِّ مُسْرِعَةً وَاقْتَرَبَت مِنْهُ فَتَعَرَّفَت عَلَيْهِ..

إِنَّــهُ أَبُوهَــا العَجُــوز، عَانَقَتْــهُ فَاحتَـضَنَهَا وَبَكَيَــا ، أَطْعَمَتْهُ حَتَّى شَبِعَ وَسَقَتْهُ حَتَى ارتَوَى وَألبَسَتْهُ أَزْهَى الثِّيَّابِ فَشَعَرَ بِالرَّاحَةِ وَالطُّمَأنِينَةِ، ثمَّ حَدَّثَتْهُ كَثِيرًا عَنْ رِحْلَةِ المَتَاعِبِ والعَذَابِ وَمَا حَدَثَ لأَخِيهَا ظَرِيف فَانْدَهَشَ الوَالِدُ لِذَلِك.

وَعِنْدَمَا أَرَادَ مُغَادَرَةَ القَصْرِ وَضَعَت مرجَانَة فِي يَدِهِ كِيسَ فَطَائِرٍ، ثُمَّ التَمَسَت مِنْهُ عَدَمَ فَتْحِ الكِيسِ قَبْلَ الوُصُولِ إِلىَ البَيْتِ مَعَ حِفْظِ سِرِّ وُجُودِهَا عَن زَوْجَتِهِ وَابْنَتِهِ.

وَعَادَ الشَّيخُ إِلَى زَوْجَتِهِ وَابْنَتِهِ فَرِحًا مَسْرُورًا وَحَائِرًا فِي أَمْرِ ابْنِهِ الغَزَال «ظَرِيف»..

فَتَحَتِ الزَّوجَةُ وَابْنَتُهَا عسلُوجَة الكِيسَ فَإِذَا بِالذَّهَبِ يَتَدَفَّقُ مِن بَيْنِ الفَطَائِر، قِطَعٌ تَتَسَاقَطُ

فَتُحْدِثُ رَنِينًا وَتَلْمَعُ فَيَتَحَوّلُ البَرِيقُ إِلىَ تَوَهُّجٍ يُثِيرُ النُّفُوسَ الطَّامِعَةَ.

طَلَبَتْ المَرْأَةُ مِنْ زَوْجِهَا الذَّهَابَ إِلىَ السُّلطَانَةِ لِشُكرِهَا رَغْبَةً مِنهَا فِي المَزِيدِ مِنَ الذَّهَبِ، وَلَمْ يُمَانِع الشَّيخُ، لأَنَّهُ تَعَوَّدَ الطَّاعَةَ وَالإِنصِيَاعَ، وَعَلِمَ أَنَّ مُقَاوَمَتَهُ لَهَا سَتَبُوءُ بِالفَشَلِ...

وَفِي اليَومِ المُوَالِي ذَهَبَا رُفْقَةَ ابْنَتِهِمَا "عَسْلوجَة" وَكَمْ كَانَت المُفَاجَأَةُ كَبِيرَةً عِنْدَمَا تَعَرَّفَتَا عَلىَ السُّلطَانَةِ التِي أَكْرَمَت حُضُورَهُم جَمِيعًا ، وَعَرفَا قِصَّةَ ظَرِيف، فنَدِمَا عَلَى أَفْعَالهِمَا السَابِقَةِ وَطَلبَا مِنهَا العَفْوَ، وَكَانَ لَهُمَا ذَلِك.

وَبَعْدَ ضِيَّافَةِ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ قَرَّرَ الشَّيخُ العَجُوزُ أَخْذَ زَوجَتِهِ وَابْنَتِهِ "عَسْلوجَة" وَمُغَادَرَةَ القَصْرِ خشْيَةَ وُقُوعِ

ابْنَتِـهِ الـسُّلطَانَة ضَـحِيَّةَ مَكـرٍ جَدِيـدٍ تُدَبِّـرُهُ لَـهَا زَوْجَتُـهُ.. وَكَـانَ لَـهُ مَـا أَرَادَ... وصَـارَ الوَالِـدُ يَـزُورُ القَصرَ من حِينٍ لآخَرَ لِرُؤيَـةِ وَلَدَيْهِ.

وَبَعْدَ أيَّامٍ عَادَ السُّلطَانُ مِن رِحلَتِهِ يَحْمِلُ عقَاقِيرَ لِعـلاجِ الـشَّابِّ الغَـزَالِ، قَـدَّمَهَا لِلعُلَمَـاءِ والبَـاحثِينَ الـذِينَ أضَافُـوهَا لِتَجـارِبِهِم وبُحُـوثِهِم قَـصدَ إبطَـالِ مَفْعُولِ الـمَاءِ الـمَسْحُور، وَبَعْـدَ فَتْـرَةٍ أَعْلَـنَ العُلَمَـاءُ وَالأَطِباءُ وَالحُكَمَاءُ عَن اكتِشَافِ دَوَاءٍ جَدِيدٍ يُعِيدُ لِلشَّابِّ "ظَرِيف" الغَزَال هَيْأَتَـهُ البَشَرِيَّةَ الأُولَـى التِـي كَـانَ عَلَيهَـا قَبْـلَ أَن يَـشْرَبَ مِـن وَادِي الـسِّحرِ، فَـأَطْرَبَ هَـذَا الخَبَـرَ العَائِلَـةَ الحَاكِمَـةَ وَكُـلَّ مَـنْ كَانَ فِي البِـلاَدِ، وَقُدِّمَ العِـلاَجُ إِلىَ الغَـزَال ظَرِيف، كَـانُوا جَمِيعًـا بالـمَخْبَـرِ المَلَكِـي فِـي صَـمْتٍ

رَهِيــبٍ، وَمَاهِــي إلاَّ دَقَـائِقٌ حَتَّــى عَـادَ الـشَّابُّ إِلــىَ حَالَتِـهِ الطَّبِيعِيَّـةِ، بَهِــيَّ الطَّلعَــةِ وَسِيــمَ الـوَجْــهِ، ، فعَمَّتِ الفَرحَةُ فِـي القَصـرِ وَتَعَانَـقَ الجَمِيعُ.

وَهَكَـذَا عَـاشَ الجَمِيـعُ رَدَحًـا طَـويلاً مِـنَ الـدَّهِرِ فِـي سَعَادَةٍ وَهنَـاءٍ، إلىَ أَنْ حَضَـرَ (هَادِمُ اللذَّات وَمُيَتِّمُ البَنِينِ وَالبَنَاتِ، مُخَرِّبُ القُصُورِ وَمُعَمِّرُ القُبُورِ فَمَاتَ مَـنْ مَـات وَعَـاشَ مَـنْ عَـاش وَسُـبْحَانَ الحَـيِّ الـذِي لاَيَـمُوت...)

الشيخ ذياب

الشيخ ذياب

اجْتَمَـعَ الأَبْنَـاءُ الـصِّغَارُ فِـي أُمْـسِيةٍ عَائِلِيَـةٍ حَـوْلَ الجَدَّة رَاضْيَـة، كَعَادَتِهم كُلَّ لَيْلَةٍ قَبْلَ النَّوم، قَالتِ الجَدّةُ:

حِكَايَةُ اللّيْلَةِ يَا أَبْنَائِي الأعِزَّاءِ مَلِيئَةٌ بِالحِكَمِ والأَمْثَالِ والعِبَـرِ والأَلْغَازِ التِـي وَرِثْنَاهَـا عَـنْ أسْـلافِنَا السَّابِقِينَ.. والتي تُصَوِّرُ لَنَا الحَيَاةَ البَسِيطَةَ والأخْلاقَ الحَمِيـدَةَ مِنْ كَـرَمٍ وَشَهَامَةٍ وَرَحَابَـةِ صَـدْرٍ وَرَجَاحَـةِ عَقْلٍ وَوَسَـاطَةٍ فِـي الأمُـورِ وَغَـيرِهَا مِـنَ الـمُعَامَـلاتِ

الطَيِّبَةِ، إنَّهَا حِكَايَتُنَا اللّيْلَة عُنْوانُها الشَّيْخُ ذْيَابُ..

إنَّهَا حِكَايةُ شَيخٍ حَكِيمٍ، أقْوَالُهُ أَمْثَالٌ وَحِكَمٌ، وَأَفْعَالُهُ مَوَاقِفٌ وَعِبَرٌ، سَيِّدُ عَشِيرَتِهِ، فَهُوَ الذي يُدِيرُ شُؤُونَهَا، يَرْعَى كَبيرَهَا وَصَغِيرَهَا، يحمِيهَا ويُوَحِّدُهَا كَالجَسَدِ الوَاحِدِ.

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ ذْيَاب ثَلاَثَ نِسَاءٍ قَصْدَ إنجابِ الأطْفَالِ، لَكِنَّهُ لَمْ يُنْجِبْ مِنْهُنَّ جَمِيعًا وَخَطَبَ الرّابِعَةَ، وَبَعْدَ سَبْعِ سَنَوَاتٍ مِنَ التَّرَدُّدِ قَبِلَتِ الفَتَاةُ وأهْلُهَا فَتَزَوَّجَهَا الشَّيْخُ ذْيَاب.

كَانَتْ للشَّيْخِ ذيَاب أغْنَامٌ كَثِيرَةٌ، يُشْرِفُ عَلَيْهَا أحَدُ الرُّعَاةِ، الذي كَانَ يَقْطُنُ مَعَ زَوْجَتِهِ في بَيْتِ الشَّيْخ ذْيَاب، وَشَاءَتِ الأقْدَارُ أنْ تَحْمِلَ الزَّوْجَتَانِ،

زَوْجَةُ ذيَاب وَزَوْجَةُ الرّاعِي ثُمَّ تَلِدَانِ فِي لَيْلَةٍ واحِدَةٍ... فَرْحَةُ الشَّيْخِ ذيَابْ كَانَتْ كَبِيرَةً بِالمولُودِ الجدِيدِ.

سُمِّيَ ابْنُ الشَّيْخِ ذيَاب "سَعِيد" وَسُمي ابْنُ الرَّاعِي "مَسْعُود".

وُلِدَ ابْنُ الشَّيْخِ ذْيَاب ضَعِيفَ البُنْيَةِ، بَيْنَمَا وُلِدَ ابْنُ الرَّاعِي قَوِّيَ الجسْمِ، ولَمّا لاحَظَت الخَادِمَةُ ذَلِكَ تَأَثَّرَتْ وَقَامَتْ بِتَبْدِيلِ الصَّبِيَين، إذْ وَضَعَت كُلَّ واحِدٍ مَكَانَ الآخَرِ، فَأَخَذَت ابْنَ الرَّاعِي وَسَلَّمَتْهُ لِزَوْجَةِ الشَّيخِ ذيَاب وَأَخَذَت ابنَ الشيخِ ذيَاب وَسَلَّمَتْهُ لزوْجَةِ الرّاعِي، فكَبُرَ الطِّفْلانِ مَعًا دُونَ مَعْرِفَةِ الحقِيقَةِ، لأنَّ الحَقِيقَة بَقِيَّتْ عِنْدَ الخَادِمَة وَلا أَحَدَ غَيرُهَا يَعْرِفُ مَاجَرَى، وَلَعَلَّ الأَيَّامَ سَتَكْشِفُ ذَلِكَ فِي المسْتَقْبَلِ.

تَقُولُ الجدَّةُ رَاضْيَةَ:

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ وَكَبُرَ الطِّفلاَنِ، وَكَمَا تَعْلَمُونَ يَاأبْنَائِي الأعِزّاء أَنَّ أَسْلافَنَا كَانُوا يُعَبِّرُونَ فِي أَحَادِيثِهِم بِالأَلْغَازِ وَالأَمْثَالِ وَالحِكَمِ، وَكَانَ الشَّيْخُ ذْيَاب مَعْرُوفًا بِهَذَا النَّوعِ مِن الكَلامِ الّذِي لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ مِنْه الطِّفْلُ مَسْعُود شَيْئًا بَيْنَمَا كَانَ سَعِيد يَتَجَاوبُ مَعَ الشَّيخِ ذِيَاب فِي الحَدِيثِ حَتَّى أَثَارَ إعْجَابَهُ لِذَكَائِهِ وَفِطْنَتِهِ.

وَفِي لَيْلَةٍ مُقمِرَةٍ كَانَتِ الأَنْجُمُ فِي الأُفُقِ تُزَيِّنُ السَّمَاءَ اجْتَمَعَ أَعْيَانُ القَبِيلَةِ وَبَدَؤُوا يَرْتَشِفُونَ الشَّايَ فِي سَهْرَة بَدَوِيَة دَاخِلَ خَيمَة الشَّيْخُ ذْيَاب الّذِي قَالَ كَلامًا فِيهِ أَلْغَازٌ وَحِكَمٌ كَعَادَتِهِ:

"مـن سَبْـع سنْــين عَلَـى أُمَّـكْ دَوَّارْ وَالثَّامَــنْ بَـيْن رْفُــودْهَا وَعْقُــودْهَا وَأَنْــتَ يَـا وَلْـدْ ذْيَــابْ تْــخِيبْ، وَقْطَعْتَكْ مَن شَجْرَة اطْيَـابْ اثْـمَارْهَا ، وَأَنْتَ يا وَلْدْ الشَّيْخ ذْيَابْ، أَمْنَاهْ تْـخِيـبْ؟"

ثُمّ تَـمَعَّنَ الشَّيْخُ فِي سَعِيد وَمَسْعُود وَنَظَرَ إلى مَنْ حَوْلَهُ وَخَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الجَمِيعِ..

كَانَـتْ عِنْـدَ الـشَّيْخِ ذْيَـاب مُهْـرَةٌ جَمِيلَـةٌ يُعِزُّهَـا كَثِيراً ، وَفِي يَومٍ مِنَ الأيَّامِ قَالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ مُمَازِحَةً :

- يَـا شَـيْخ ذْيَـابْ هَـبْ لِــي الــمُهْرَةَ اعْتِرَافًـا بِالـمَوَدَّةِ، أو ْكَحِصَّةٍ لِي فِي الرِّزْقِ.

رَدَّ عَلَيْهَا قَائِلا:

- بِشَرْط أَنْ تَأَتِي بِثَلاثَةِ أجْوِبَةٍ عمَّا سَأَذْكُرُهُ:

ماهو خَيرُ الأسْماءِ وخَيرُ المَأكَلِ وخَيرُ المَلْبَسِ وَوَعْدٌ مِنِّي أمَامَ الجَمِيعِ، إنْ وُفِّقْتِ فِي ذَلِك يَكُونُ لَكِ مَاطَلَبْتِ.

ذَهَبَتِ الزَّوْجَةُ إلى عَشِيرَتِهَا لِتَبْحَثَ عَنِ الأجْوِبَةِ، فَأَخْبَرَهَا أَهْلُهَا بأنَّ:

- خَيرَ الأسْماءِ: عُمَر، خَيرَ المَأكَلِ: التَّمْر، خَيرَ الملبسِ: الأحْمَر.

وَفِي طَرِيقِ عَوْدَتِهَا التَقَتْ بِابْنِهَا سَعِيد (المَعْرُوف بِابْنِ الرَّاعِي) يَرْعَى القَطِيعَ، فَأَخْبَرَتْهُ بقِصَّةِ الألْغَازِ وَالحُلُولِ الّتِي جَاءَتْ بِهَا من عِنْدِ أَهْلِهَا، فَقَالَ لهَا:

- إنَّها أجْوبَةٌ خَاطِئَةٌ، سَأُخْبِرُكِ بِالصَّحِيحَةِ،

وَهِي:

- خَيرُ الأسْماءِ: محمد، خَيرُ المَأكَلِ: أَكْلٌ بَعْدَ جُوعٍ، خَيرُ المَلْبَسِ: السَّاتِر.

عَادَتِ الزَّوْجَةُ إِلَى الشَّيْخِ ذْيَابْ مُسْرِعَةً، وَقَدَّمَتْ لَهُ الأَجْوِبَةَ التِي سَمِعَتْهَا مِنْ سَعِيدٍ، وَبَعْدَ انْدِهَاشٍ قَالَ لَهَا مُتَعَجِّبًا:

- هَذِهِ الأفْكَارٌ خَارِجَةٌ مِنْ صُلْبِي وَلا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ الإِجَابَةَ عَنْهَا!.

لَمْ تُخْبِرهُ زَوْجَتُهُ بِالحقِيقَةِ فَقَرّر اختبارها بِحِيلَةٍ، إِذْ كلّفَ رَجُلاً يُسَمَّى "البَرّاح" بالسَّير بَيْنَ الخِيَّامِ وَقَوْل:

- الإِبِلُ ضَاعَتْ وَابْنُ الرَّاعِي مَاتَ...

اخْتَبَأَ الشَّيْخُ ذْيَابْ خَلْفَ سِتَارٍ لِيَسْتَمِعَ إلى زَوْجَتِهِ مَاذَا تَقُولُ عِنْدَ سَمَاعِ قَوْلِ البرَّاحِ..

وَفِعلاً قَالَتْ وَهِيَ تَبْكِي لمّا سَمِعَت كلاَمَ الرَجُلِ:

- مُنْذُ قَلِيلٍ وَجَدْتُهُ.. سَعيد وَجَدْتُهُ.. وَحَدّثَنِي...

عَرَفَ الشَّيخُ أنَّ سَعِيدًا هُوصَاحِبُ الأجوِبَةِ، فَقَالَ:

- إنْ لَمْ يُجِبْ عَنْ أسْئِلَتِي بِصَرَاحَةٍ سَأَطْرُدُهُ مَعَ وَالِدَيْهِ مِنْ هُنَا.

عَادَ الوَلَدُ سَعِيد(المعْرُوفِ بِابْنِ الرَّاعِي) في المَسَاءِ وَعَلِمَ بِقَرَارِ الشَّيخِ اقْتَربَ مِنْهُ وقَالَ لَهُ:

- سَوْفَ تَطْرُدُني في الغَالِبَةِ أمْ فِي المغْلُوبَةِ...؟

انْدَهَشَ الشَّيْخُ ذْيَابْ وَاحْتَارَ لِهَذَا السُّؤَالِ ثُمَّ سَأَلَهُ عَنْ الغَالِبَةِ وَالـمَغْلُوبَةِ، لَـمْ يُجِب سَعيدٌ الشَّيْخَ ذْيَابْ بَلْ سَأَلَهُ مَرَّةً ثَانِيةً:

- أَخْبِرْنِي بِالنِّسَاءِ مَا يَغْلِبُهُنَّ؟ وبِالـخَيْلِ مَا يَغْلِبُهَا؟ وبِالـمَاءِ مَايَغْلِبُهُ؟ وبِالـجِمَالِ مَايَغْلِبُهَا؟

وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ يَا أَبْنَائي الأعِزَّاء لَمْ يَعْرِف الشَّيْخُ ذْيَابْ الإجَابَةَ، فَأَجَابَ بَدلَهُ الوَلَدُ سَعِيد:

- النِّسَاءُ يَغْلِبُهُنَّ أَوْلادُهُنَّ.
- الخيلُ يَغْلِبُهَا رُكَّابُهَا (الفُرْسَان).
- الـمَاءُ وَالإبِلُ تَغْلِبُهُمَا العَقَبَةُ.

شَكَّ الشَّيْخُ ذْيَابْ فِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الوَلَدُ سَعِيدُ ابْنَ الرَّاعِي حَقِيقَةً، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ:

- لاشَكّ أَنَّ سعيدًا المعْرُوف بِابْنِ الرَّاعِي هُوَ ابْنِي الحَقِيقِي، وأَنَّ مَسعودًا المعْرُوفَ بِابْني هُوَ ابْنُ الرَّاعِي.

وَبدأتِ الأمُورُ تَتَّضِحُ للشَّيْخِ ذْيَابْ فَعَزَمَ عَلَى التَّعَقُّلِ والتَّأنِي حَتىَّ لاَ يَتَسرَّعَ فِي الحُكْمِ واتِّخَاذِ القَرَار، وَفَكَّرَ فِي إِعَادَةِ الاخْتِبَار مَرَّةً أُخْرَى.

أَرْسَلَ الشَّيخُ سَعِيدًا وَمَسْعُودًا فِي رِحْلَة لِلبَحْث عَنْ مَنَابِعِ المِيَاهِ وَالمَرَاعِي الخَضْرَاءِ، وَأَعْطَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا خُبْزَةً وَسَيْفًا وَحِصَانًا.

غَابَ الوَلَدَانِ أَيَّاماً وَلَيَالٍ وَمَا وَجَدَا سِوَى أَرْضٍ قَاحِلَةٍ وَأَثَارَ قَافِلَةٍ لِلبَدوِ الرُّحَلِ، وَمِنَ الأَثَرِ أَدْرَكَ سعيدُ (المعْرُوفِ بِابْنِ الرَّاعِي) أَنَّ فِي القَافِلَةِ بَعِيرين: أَحَدُهُمَا أَعْوَر وَالآخر أَبْتَرَ، وَامْرَأَةً حَامِلا وَكَلْبَةً مَعَ صِغَارِهَا.

عَادَ الوَلَدَانِ إلى الشَّيْخِ يُخْبِرَانِهِ مَا رَأَيَا ، وَفِي جَلْسَةٍ اجْتَمَعَ فِيهَا رِجَالُ القَبِيلَةِ لِيَتَحدّثوا في أَمْرِ القَافِلَةِ المجْهُولَةِ.. سَأَلُوا الشَابَّينِ عَنْ سِرّ القَافِلَةِ، فَأَجَابَ مَسْعُود ابْنُ الرَّاعِي (المعْرُوف بِابْنِ الشَّيْخِ).

- لَمْ أَرَ شَيْئاً في الرِّحْلَةِ غَيرَ آثَارِ القَافِلَةِ.

أَمَّا الوَلَدُ سَعِيد (المعْرُوف بِابْنِ الرَّاعِي) فَقَالَ:

- عَرَفتُ أنَّ فِي القَافِلَةِ المَجْهُولَةِ بَعِيرًا أَعْوَرَ، لأَنَّهُ أَكَلَ الحشِيشَ عَلى الجَانِبِ الأيْمَنِ للطَّرِيقِ وَتَرَكَ ما عَلَى اليَسَارِ وَبَعِيرًا آخَرَ أَبْتَرُ (بِدُونِ ذَيْلٍ) لأَنَّهُ كَانَ يَرْمِي البَعْرَ مُتَنَاثِراً...

أَلَمْ تَسْمَعُوا بِقَوْلِ القَائِلِ: "البَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى البَعِيرِ وَالكَوْنُ يَدُلُّ عَلَى صُنْعِ الخَالِقِ القَدِيرِ".

أَمَّا دَلِيلُ الـمَرْأَةِ الحَامِلِ فَلأنَّهَا كَانَتْ عِنْدَمَا تَجْلِسُ تَشُدُّ فِي شُجَيْرَةِ الشِّيحَةِ فَتَقْلِعُهَا.

وَقَدْ عَرَفتُ سِرَّ الكَلْبَةِ وَصِغَارِهَا الّذِينَ كَانُوا عَلَى ظَهْرِ البَعِيرِ مِنْ أثَرِ رِجْلَيهَا الخَلفِيتينِ فِي الطَّرِيقِ وهِيَ تُحَاوِلُ الوُقُوفَ عَلَيْهِمَا لِرُؤْيَةِ صِغَارِهَا المَحْمُولِينَ.

قَالَ الشَّيْخُ ذيَاب بَعْدَ سَمَاعِ تَفْسِيرِ الشَّابِّ سَعِيد وَمَعْرِفَةِ مَدَى ذَكَائِهِ وَفِطْنَتِهِ:

- اسْمَعُوا يَا أَعْيَانَ القَبِيلَةِ.. إِنَّ الشَّابَّ سَعِيدًا هُوَ ابْنِي الحَقِيقِي.. وَأَظُنُّ أَنَّ هُنَاكَ خَطَأً يَنْبَغِي تَصْحِيحُهُ لِيَعْرِفَ الجَمِيعُ أَنَّهُ ابْنِي، وَأَنَّ مّسْعُودًا لَيْسَ ابْنِي بَلْ هُوَ ابْنُ الرَّاعِي.

انْـدَهَشَ الجَمِيـعُ.. وَصَـمَتُوا حَـائِرِينَ، ، وَبَعْـدَ حِينِ سَأَلَهُ أَحَدُ الأعْيَانِ الحاضِرِينَ:

- كَيْـفَ عَرَفْـتَ يَـا شَـيْخ ذُيَـابْ أَنَّ سَـعِيدًا هُـوَ ابْنُكَ؟

أَجَابَ الشَّيْخُ:

- أَلا تَــرَى.. ذَكَـاءَهُ وَحِكْمَتَـهُ..؟ هَـلْ تَكُـونُ هَذِهِ الصِّفَـات عِنْدَ أَبْنَاءِ الرُّعَاةِ...؟!!

نَطَقَ آخَر:

- لَكِنَّ اللّٰه يُؤْتِي الحِكْمَـةَ مَـنْ يَشَاءُ يَـا شَـيْخَ ذُيَـابْ، وَلا فَـرْقَ عِنْـدَهُ بَـيْنَ أَبْنَـاءِ الأَغْنِيَـاءِ وَأَبْنَـاءِ الفُقَرَاءِ.

قَالَ الشَّيْخُ ذْيَابْ مُقَاطِعًا:

- سَعِيدٌ ابْنِي وَلَنْ أَتَنَازَلَ عَنْهُ مَهْمَا كَانَ الأَمْرُ.

تَعَجَّبَ الشَّابَّانِ سَعِيدٌ ومَسْعُودٌ واستَغرَبَا مَا سَمِعَا، وَاحْتَارَ القَوْمُ فِي هَذَا المَوْقِفِ الجَدِيدِ للشَيْخ ذْيَاب..

وَبَعْدَ أَخْذٍ وَرَدٍّ انْطَلَقَوا إلى الشَّيْخُ المُدَبِّرِ الذِي قَالَ بَعْدَ سَمَاعِ الحِكَايَةِ:

- أَحْضِرُوا المَرْأَةَ الحَاضِنَةَ لِسَعِيدٍ وَمَسْعُودٍ..

وَذَهَبَ مَنْ يُحْضِرُ الحَاضِنَةَ، وَبعْدَ فَتْرَةٍ أَقْبَلَتْ الخَادِمَةُ تَحْمِلُ الحَقِيقَةَ، مُعْتَرِفَةً بِفِعْلَتِهَا، قَائِلَةً:

- نَعَمْ... لَقَدْ غَيَّرْتُ نَسَبَ الصَّبِيَيْنِ فِي اليَوْمِ

الأوَّلِ لِمِيلادِهِمَا وَقَدَّمْتُ سَعِيدًا الهَزِيلَ ابن الشّيخ ذيَاب لِزَوْجَةِ الرَّاعِي وَمَسْعُودًا القَوِيَّ ابْنَ الرَّاعِي لِزَوْجَةِ الشَّيْخِ.

نَظَرَ القَوْمُ نَحْوَ سَعِيدٍ وَمَسْعُودٍ اللَّذَيْنِ كَانَا مُنْدَهِشَيْنِ..

بَعْدَ حِين انْزَوَى الفَتَيَانِ فِي جِهَةٍ خَلْفَ الخَيْمَةِ وَتَشَاوَرَا قَلِيلا ثُمَّ عَادَا إِلَى الجَمَاعَةِ قَائِلَيْنِ:

- إِنَّ مَا صَرَّحَتْ بِهِ الحَاضِنَةُ وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا فَإِنَّهُ لَنْ يُغَيِّرَ مِنَ الحَالِ شَيْئًا ، لَقَد قَرَّرْنَا البَقَاءَ حَيْثُما نَحْنُ... كُلُّ واحدٍ يَعِيشُ مَعَ الأُسْرَةِ الّتي تَرَعْرَعَ فِي أَحْضَانِهَا..

إزدَادَ الحَاضِرُونَ انْبِهَاراً بِهَذَا القَرَارِ، وَزَغْرَدَتِ النِّسْوَةُ فِي خِيَامِهِنَّ إعْجَابًا بِهِ، وَقَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفَ كُلُّ فَرْدٍ إِلَى بَيْتِهِ سَأَلَ أَحَدُ الحُضُور.

- وَمَنْ يَخْلِفُ مِنْهُمَا شَيْخُ القَبِيلَةِ فِي المُسْتَقْبَلِ؟

أَجَابَهُ الشَّيخُ المُدَبِّر:

- الأَكْثَرُ عِلْمًا وَحِكْمَةً.

وَعَاشَ سَعِيدٌ وَمَسْعُودٌ مَعَ الجَمِيعِ، مُتَحَابَيْنِ فِي أَمْنٍ وَسَلَامٍ، وَأَصْبَحَتْ قِصَّةُ الشَّيخ ذيَاب أُسْطُورَةً جَمِيلَةً تُرَدِّدُهَا الأَجْيَالُ يومًا بَعْدَ يَوْمٍ...

فهــرس

❖ مقدمة :.......... 03

- عروس الجبال:.......... 7

- بنت السلطان:.......... 23

- لونجا :.......... 41

- الأميرة السجينة:.......... 57

- الفرسان السبعة والأميرات:.......... 71

- بقرة اليتامى:.......... 87

- الشيخ ذياب:.......... 123

- الفهرس:.......... 141